مجموعة قصصية

جيوب الكفن

أحمد الشيخ

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

تصميم الغلاف

شريف رضا

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف ـ ١١١٩ كورنيش النيل ـ القاهرة - ج . م . ع .
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ ـ فاكس : ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

إهـــداء

لمصر المستقبل... والناس

ولأرواح ضحايانا ممن كانوا يحلمون بالمستقبل

فى ميادين التحرير، وقد سجلوا صفحة غير مسبوقة

فى تاريخ الثورات

أحمد الشيخ

مقدمة

من خلال الحلم والمنام والكابوس والرؤيا وتفاصيل الواقع الصعب الذى عشناه تطمح هذه المجموعة أن تستكشف مفردات الواقع وتحاول تفسيرها، ومحاولات التواصل مع القارئ من خلال الوعى المشترك والكامن موروثا، إذ يسكن الخلايا ويتحول إلى لغة وأمثال وحواديت وحكم وروايات يتبادلها الناس، وهذه المجموعة تحاول أن تطرح لمن يقرأ تفاصيل مرحلة عشناها معا وتعايشنا معها قبولا أو رفضا، ولعلها تفاعلت مع مكابدات ومصاعب وتعويقات لأى رغبة لإضافة تبدو ممكنة، مسنودة على رصيد خبرات لورثة من أسهموا فى تأسيس الحضارة الإنسانية فى بداياتها ثم رسموها وكتبوها برديات تأكد أنها كانت أول كتابة تحتوى على نصوص حدثتنا عن فلاح بسيط فى مواجهة الفرعون، وتدور الأيام ويبقى هذا الشعب فى مواجهة البرابرة القدامى الذين وفدوا واستباحوا ميراثه، ومثلما فعل بعض من ينتسبون لطين الأرض مع من

حكموهم وتحكموا فيهم وهم من نفس السلالة، لكن الكاتب المصرى القديم كان يتبدى أحيانا ويعرض ما يراه من خلال أقلام عشقت وطنها ولم تسع لتربح أو بيع رخيص. وظيفة الكاتب فى كل عصر هى البوح والسعى لتبسيط الحياة من خلال التواصل مع البشر. هى محاولات منشورة فى أهرام الجمعة وغيرها من الصحف والمجلات، لعلها تحوز بعض الاهتمام وتتحاور مع المشاعر والعقول الواعية بمسارها فى التاريخ.

أحمد الشيخ

جيوب الكفن

صامتا وتائها عن نفسـى كنت أمشـى بين الأكابر وكبار السـن منهم، كان شـباب العائلـة يتابعوننا والصمت مهيمـن عليهم دون أصوات، حتـى الأنفاس لا تبوح بتعبيرات التقاطيع السـاكنة التى تتابع خطواتنا وتوشك أن تحصيها بسلبية وحياد جامد غير مألوف، وأنا أنظر للوجه فتفر العينان وبالألسنة يطلبون الرحمة للراحل ولآله الصبر والسـلوان على ما ابتلاهم به المـولى، كان باب الدار مزحوما، وعندما لمحونا تباعدوا وافسـحوا مدخلها أمامنا فدخلنا صحن الدار الضيق واللائق بضيقها المعروف غير المحتمل، رأيته راقدا على درابة الغسـل عريانا إلا من قطعة قماش بفتة بيضـاء تدارى عورته وبطنه وجزءا من صدره اقتربت منه فبدا لى أنه ينظر ناحيتى ليطمئننى على صحوه ويحـاول النطق معترضا على ما كان يـدور حوله، واقتربت لأتسـمع همهماتهم وتعليقاتهم التى كانت تتـوالى وتطلب له ولبدنه الرحمـة والغفران من الواحد القهـار، ويطلبون من المولى أن يمنحنى الصـبر والقدرة على احتمـال فقدانه ما دامت الدنيـا فانية ولا دوام إلا للخالـق، كنت أتأمله بلهفة وهو سـاكن فى مرقده، ومستسـلما لإشـاراتهم جلسـت فوق مقعد بجواره لألتقط أنفاسى من عناء السفر كما قالوا، وحاولت أن ألملم روحى على مهل، لكننى انتفضت واقفا

على نحو مفاجئ بحساباتهم وبدأت الصراخ في وجوههم معبرا عن احتجاجي :

– مين اللي جابه يتغسل ويطلع من هنا ؟ دارنا اللي هي داره براح يا ناس، ولا هي ما بقتش داره ؟ ما بقتش داره ؟

تبادلوا النظرات ولم ينطق أيهم بكلمة، فعاودت السؤال بصوت أعلى ممرورا، وبدلا من الرد أسمعوني عديدا ونعيقا وأصواتا تندبه أثناء تغسيل البدن اللين المطاوع بعكس بنيانه كما عرفته وألفته، ثم سكتوا، ومغلوبا على أمرى لذت بالصمت قبل أن انتفض لأترك المكان بعد نظرة وداع خاطفة ممرورة لبدنه، ولا أعرف كيف توجهت ناحية باب الدار المفتوح وخرجت لأراه قبالتي يجلس مسنودا على جدار الزاوية ورأسه مدفوس ومخفى بين الركبتين بينما أقف قبالته لأسأله مستنكرا باستياء .

– مين إللى جاب أبوك يتغسل ويطلع من هنا؟

رفع رأسه وفتح عينيه المسبلتين ليراني ثم أعاده مدفوسا كما كان بين قبضتيه الملفوفتين حول ركبتيه ودون أن يكلف نفسه ردا، كنت أتفكر كيف ومن رتب له الغسل والتكفين والدفنة في دار خاله؟ وقد تحمل وتحامل على نفسه وعاش غربة ممدودة، ثم يموت في تلك الدار ويتم تغسيله وتكفينه قبل دفنه، هل رتبوا أيضا دفنه في مدافن أخواله لتكتمل غربته بعد الموت أيضا؟ والأخ الأكبر في نفس مكانه، وملموما على نفسه بدا لى أنه يفر من مواجهتي، وهو يدفس رأسه بين الساقين والذراعين الملفوفتين حولهما، لم أتحكم في نفسي فانحنيت وبقبضتي أفلحت في فك الذراعين، بدا لى وكأنه يدارى غضبته، ويحاول أن

يتخفف أمام الناس غرباء وأقارب، ولعله طاوعني ساعتها لأتوهم أنني أجبرته على مواجهتي فأهدأ وأتخفف، ربما كان عزمي وانفعالي أقوى منه ومني، لأنه رفع رأسه ليتأملني بوجه مكفهر، وعاجزا عن الاحتمال كررت سؤالي:

– مين ؟ مين إللي جاب أبوك يتغسل ويطلع من هنا؟

– ما حدش جابه يا أستاذ. هو اللي جاب نفسه

– ما قدرتش تستحمله كام يوم ف الدار لحد ما ربنا يفتكره؟ استحملت أبوك كام يوم؟ استحملته كام يوم ف دارك؟

ومستضعفا بوهن وربما بصوت مفتعل رد علي:

– خبر إيه يا أستاذ ؟ داري دا إيه ؟ ما هي داره قبل ما تبقى داري ولاّ دارك، سامعين يا جماعه الأستاذ بيقول إيه؟

تلفتوا لبعضهم البعض ثم غمغموا بكلام متداخل لم أتبينه بهدف التهدئة، بدا لي أنه اكتسب تعاطفهم فراحوا ينظرون ناحيتي بشيء من الارتياب غير المعلن، ثم يقوم متساندا بكفيه على الجدار خلفه ويمسح راحتيه في صدر جلبابه ليواجهني رأسا برأس، كانت عيناه تنضحان غلاّ كامنا لم يستشعره أحد غيري، وعيناه تلتمعان كأنما تعلنان انتصارهما على عيني التائهتين الباحثتين عن إجابات لأسئلة لم يطرحها هو على نفسه ولا طرحناها عليه ولم يتمكن من الرد الشافي الكافي عنها، كان البدن الملفوف بسبع طاقات من القطن والكتان والحرير الطبيعي يخرج محمولا بين أياديهم وهم يتوجهون به ناحية النعش المركون بجوار جدار الزاوية ليوسدوه مرقده على مهل. يحملون النعش ويتحركون

داخلين به من باب الزاوية، بينما الأخ يعبر وقد أفسحوا له مساحة بينهم ليدخل، كان بعضهم يتراجع إلى الوراء ولم يكن لدىّ بديل غير التوجه إلى نفس المكان الذى أدخلوه منه، لأنه كان يسمح بدخولى بينهم عن قناعة غير قابلة للنقاش. وفى الصلاة على روح الميت لم ألمحه أمامى أو فى الصف الذى وجدتنى واقفا فيه، وبعد الصلاة حملوا النعش على مهل وأخرجوه، وبأصواتهم كانوا يكبرون ويتزاحمون لإخراجه من باب الزاوية ثم أشاروا لى لأتقدمهم وأحمل الخشبة الأمامية اليمنى على كتفى الأيسر، ويحمل هو الخشبة اليسرى على كتفه الأيمن. وعندما رفعنا الجزء الأمامى رفعوا الجزء الخلفى فى ذات الوقت تقريبا، وخطونا أولى خطواتنا فى مشوار الوداع للأب الراحل. وكنت أسمع عبارات العزاء ولا أملك أن أرد عليها. والمشوار يبدو ممدودا ونحن نتحرك بالنعش الذى بدا لى خفيفا فى بعض الأحيان إلى حد أننى كنت أتوهم أنه قد يطير بنا، أو يبدو ثقيلا فوق إمكانياتى لمواصلة مشوارى للمدافن. لكننى واصلت المشوار مدفوعا بقوة خفية جعلتنى قادرا على احتمال ثقل النعش غير المتوقع، أو شعورى أنه سيرفعنا عن الأرض ونتعلق فى الفراغ. كان يلزم أن نواصل مشوارنا بخطواتنا المتوافقة والمتقاربة لتخطى منحنيات وتباديل اتجاهاتنا دون كلمة أو تفكير فى طلب الراحة. وبرغم الجهد المبذول فوق الطاقة ودون التفاتة من أحدنا للآخر ليرشده أو يسترشد به. وقد كان هناك بالقطع ميراث مشترك تسلل إلينا من جينات مشتركة. فمكنتنا من توجيه النعش كما نريد فى المنحنيات. أو أن نبدل الاتجاهات دون كلمة أو نظرة أو سماع إرشاد منطوق. وخوفا من خلاف ينشب بيننا

ويستشعره من جاءوا لتأدية واجب العزاء من بدايته. بدا لهم أننا اتفقنا في كل شيء، ومشوار الدفن الذى قطعناه رغم الصهد وضوء الشمس الحارق انتهى بسلام، لكننا تحاملنا وصمدنا ولم نستجب لعرض من عروض الإجارة رغم أنها كانت مشروعة ومتتابعة وصادقة فى قلقها علينا «أجرنى .. أجارك الله» لكن الوهن لم يتمكن منا قبل أن نضع مقدمة النعش أمام المقبرة، لا فرطنا فى الحامل ولا فى المحمول، وعندما أنزلناه تهالكنا فوق المصطبة البراح عن يمين المقبرة، كان عزام يطل من فتحة المدفن، وكنا نراه يشير لهم متعجلا أن يحملوا المرحوم على مهل ليتناوله ورأسه أمام البدن، وتسابقوا على إخراجه من النعش ثم حملوه والرأس أمامه، كان عزام بارعا فى مهنته بشهادة كل من تعامل معهم، ورافضا أى مساعدة فى تأدية دوره، وصحيح أنه كان يسمح لحفيده عزام الصغير أن يدخل المقبرة ليؤنسه ويحادثه أو يسمع تمتماته فى أذن الميت بعبارات لايسمعها أو يفسرها ولا يترجم كلماتها أحد، وكان الشيخ معاطى يقرأ القرآن على روح الميت ويوصيه بأن يرد بكلمات مختصرة على أسئلة ملاك الموت الذى سيلقاه بعد أن ينسد باب المقبرة، وعزام الصغير يخرج ويحمل الباب بين يديه وينتظر خروج عزام الكبير ليمد له يده، يتناوله ويضعه فى مكانه ويحوط أطرافه على مهل بالطمى الذى جهزه، وغطاه بالتبن وركنه عن يمين الفتحة قبل دخولها.

كنت أجرجر القدمين تائها وأنا أهز رأسى غير مصدق أننى فقدته، وعبارات قيلت لتواسينى فسمعتها وتاهت فى دهاليز الصخب أو تلاشت، ولم يسكن القلب أو يشعر بالعزاء الذى نلته من الأهل والغرباء، لعلنى

شعرت بعدم القدرة على احتمال فراق الأب الذى تركنى «لجدتى لأب» تباعد عنى زمنا مطمئنا أننى سأرتاح وأضحك وهى تحكى حكاياتها. وتهدهدنى وتسحبنى من مكابدة حرمانى من الأم فى طفولتى المبكرة ومطالع صباى.

* * *

بدا لى فى الكابوس الكابس على أنفاسى أن كفرنا «الخروبى» صار هدفا تتهدده قوى باغية لتقلب موازينه فأصبح «عاليه واطيه» يمشى على دماغه مستبدلا بالكفين حركة القدمين ويبدو مسنودا على شكل مسدس أو مربع من بلاستيك مقوى تحته أربع عجلات أو ست عجلات وفى وسطه مساحة غويطة على شكل طبق صاج يسمح باستتباب جمجمة بنى آدم متوسط البنية. يتحرك به الطبق بآلية وقدماه مرفوعتان لأعلى دونما اعتراض وقد صار هرما مقلوبا أو كائنا حيا متواطئا ضد نفسه بشكل مجانى يمكنه أن يرى أمامه من يطلبه حتى لو انقلب ميزانه. ولأنه فى الخفاء و العلن كان قد استجاب لخصومه من فرط رعبه بسبب اعتياده على طاعة الأقوياء. تناسى تاريخه وسعى للانفلات بفص مخه التحتانى غير المحسوب حسابه. وبعدها تحول إلى شبه آلة أو أراجوز يتحرك بشكل معكوس ليبعث الفرحة فى قلوب خصومه القدامى وقد تصالح معهم وقبل شروطهم بلا خجل ليولد الحسرة فى قلوب العقلاء من ناسه على ما صار إليه حاله وحالهم فى ذات الوقت. ولعل البعض منهم صدقه أو توهم أنه سوف يصدقه لو تمكن من زراعة بذور البهجة فى قلوب من يحيطون به. أنصاف الأكابر والأصاغر من محدثى النعمة

من أمثاله فى ذات الوقت، لأنه وعدهم بأن يدعوهم ليسابقوه بالتتابع فوق مساحة الأرض الخالية والمستوية. وقد امتطى كل واحد منهم تحت فردتى حذائه زوج قباقيب «باتيناج» واثقا أنه سيحصل على جائزة مؤكدة عن كل شوط يلاعب فيه الرجل الأحول. يشعر بالتفوق على الدماغ المقلوب على مربع أو مسدس تحت طبق محمول فوق أربع أو ست عجلات يعجز دماغه المقلوب عن التحكم فيها مثلما تتحكم أقدامهم فى عجلاتهم التحتانية.

فى رؤية تالية من نفس الكابوس شفت رأس كفرنا الأرجوانى وقد صار مدكوكا وثابتا فى أعماق نفس الأرض لا يظهر منه شىء. كأنه جذع شجرة كافور لها فرعان متساويان، ووحيدان عاريان من كل ما يوحى باحتمال نمو الأغصان أو خضرة الأوراق مستقبلا. جفاف وثبات ساكن على السطح كما قد يتجلى لأى عابر سبيل محايد. وسوف يصعب عليه حالها وحالنا والكل يتأسى بمرارة على مصيرها ومصيرنا المعتم بعد أن صار الدماغ مدفونا ومعزولا عن كل ما يوحى بأنه كان موجودا ومشاركا وواعدا لناسه بتحقيق الأمنيات المشروعة أو حتى بعضها. متوعدا بتدمير كل من فكر فى تعطيله أو تعويقه.

ولأن كفرنا كان يبدو فى الأحلام متألقا ومبهرا و «أرجوانيا» أو متحذلقا وخاملا أو عطلانا أحيانا برغم كونه باقيا وساكنا فى نفس مكانه المختار منذ تأسيسه إثر حوارات ومداولات مضنية لتلبية رغبة من دارت فى خيالاتهم أحلام وردية لم تتحقق برغم أنهم شافوا بناياته كأنها حلم مشروع يحلق فى دوائر علوية تضعه فوق الأرض أساس راسخ ومشرق

لكفــر مزدهر أعلى من كل الكفور المجاورة. وكل كفر مجاور يتعلل بأنه أقدم. ويحق له أن يطالب بحماية حقوقه فى ملكيته الفكرية لأن العراقة وحدها لا تكفى ما لم يســع أصحابها لتحقيق الأمنيات المشــروعة التى واصلت طوافها المتواصل بأخيلة من ســكنوه قبل أن يتأسس على النحو المأمول ليكون كفرا «برقوقيا» يمتلك بنايات شــامخة تتيه زهوا بما أنفق عليهــا من أمــوال الناس. وهــى بنايات فى براح مفتــوح حوله. براح يوحى بالتحقق والتألق ويعد بتحســين أحوال من أســـوه. وتتفتح فى كل الأوقات مســاحاته الرحبة وقاعاته المكيفة. ومرتاحون فوق مقاعدهم الوثــيرة يتحاورون بحرية مطلقة فى كل ما يعن لهم. لأنه يخصهم إرثا شــرعيا بجدرانه المتوددة، كانوا ينعمون بحمايته خلف أســوار وأبواب متعالية صلبة.

وكانــوا يقولون لبعضهم البعــض بعد أن دارت عليهــم الدائرة عدة دورات. وعصفت بهم زوابع حملتها رياح الشمال الباغية على غير توقع من ناس كفرنا «المشمشـــى» الذى تلونت واجهته وانطمس ما كان الناس يحســبونه بريقا أزليا غير قابل للــزوال. وربما أدركوا دلالات ما جرى وقالــوا لبعضهــم البعض بقليل من الحســرة أن البقاء لله وحده. أضاف المتفائلــون منهم أن ما انكســر يمكن إصلاحه لو خلصــت النوايا وصح العزم. ســرت حول البنايات أمنيات جديدة لا تقل عن تلك التى كانت تتراءى لمن نادوا فى السابق بتأسيس الدرب قبل أن يتجسد بناية غالية نالتها بعض الأضرار الهينة بحســاباتهم. لكنه فى الناحية الأخرى من الســاحة شديدة البراح كانت تتواتر أصوات قادرة على إزاحة الأمنيات

جانبا. وبأصـــوات تدعوا للإفاقة من الأوهام والصحو بعد الغفلة لإضافة المزيد من الأحلام الممكنة، مضافا إليها أحلام مســتحيلة التحقق. وكان البعض منهم يصرخ بعزم الصوت:

– أنتم فى غفوة خالصة، أنتم فى زمن الغفلة.

– تقاعســتم عن أى فعل واستكنتم على الكراسى الوثيرة فى الداخل وتصاممتم عن أصوات الزوابع وصرخات الحرس القديم قبل الحسرة على كفر أفلحتم فى تأسيسه لحمايتكم.

– إنه الطوفان الغبى القادر على إزاحة البنايات العتيقة فأفيقوا.

لكــن الصمت كان داخــل البناية مطبقا، وصرخــات التحذير بدت لبعض من يلوذون بالمكان مثل أجراس إنذار فى زمن الســلم أو المسالمة، مســالمة لا لزوم لها وهم يتبســمون بينما يتصافحون مع كبار الزوار فى مواجهة الكاميرات وفلاشات التصوير الثابتة والمتحركة. وكان هو داخل الكابوس مرميا كجثة مدفونة فى ركام بناية منهارة بفعل زلزال بشـع ومرعب ذكرنى باسم قريتى الذى لم أتمكن من معرفة معناه أبدا. فقررت أن أريح نفســى من محاولات فهم المعنى رغــم انتمائى له. أدفعه عن زمنى فرارا وأســنده إلى زمن الفراعين. وكثيرة هى القرى التى تتســمى بأســماء لم نتعرف على أصولها نتيجة التعجل أو الجهل أو عدم الرغبة فى مواصلــة البحث والتمحيص فى دلالات الأسماء اســتنادا إلى مقولة أن الأســماء لا تعلــل. والزلــزال الذى هز أرضية مدينــة «بم» الإيرانية يــزود مواجعــى ويذكرنى بقريتــى «بمم» التى هى – كما قلت لنفســى فى الســابق– اســم فرعونى قديم لم أتمكن من ترجمته عن هيروغليفية

لم أتعلمها. وأسأل روحى: هل زحف الفراعين من الزمن القديم ودخلوا بلاد الفرس؟ أم أنهم حملوا اسم قريتى لفارس القديمة التى حكمتنا زمنا بعد الزمن الرومانى، وربما اتخذت من قريتى قبل أن تتأسس مقرا لقائد عسكرى متواضع. أو نصف حاكم أو حتى ربع مسئول.

وتبـدى لى فى الكابوس أن بغداد المنهارة التى زرتها وتسـكعت فى دروبها صاحيا ثم جلست على مقاهيها التى تتشابه إلى حد التطابق مع مقاهينا فى القاهرة، وقد كانت تعشـش فى الدماغ نصف الواعى نصف التائه، وأصوات الخلق القتلى والأسـرى تسـتجير بمن يستجير ويصرخ فى كابوسه الخاص والعام:

- مقهى - مقهر - مقهى - مقهر - مقهى - مقهر، جناس ناقص - جنـاس كامل - جناس - تجانـس - تكانس - تجانس - تكانس - بم - بمم - بم - بمم - بمم، بم، بمم.

كنـت فى الكابوس محاصـرا على غير توقع بالشـقيقين أحاول أن أتحاشـى الضربات غـير المتوقعة منهما، فأصرخ مسـتجيرا بوجه الأم لتصحـو من غفوتها بعد الموت لتذكرهم بأننا أشـقاء ولا يحق لهم قتلى بسـلاحين غادرين، تذكرهم بوجـع قلبى والصمامـات الصناعية التى وضعوها مكان «الميترالى والأورطى» المنزوعين بعد فشـلهما فى تمرير الدم بشـكل مأمون حسـبما قالوا، ولأن أمى لم تفعل شـيئا لحمايتى غصبا عنها، فربما تخيلتنى قتيلا لأخوين شـقيقين. وأنا راقد إلى جوارها فى نفس القـبر، وتخيلتها ترمح وتفر من قبرها التائـه الذى يصعب النيل منه وهو ينهار ويتلاشـى ويندك تحت الأرض، وواثقا كنت أعرف أنه

كابوس مباغت ســأصحو منه إن كان لى فى العمر بقية، أســعى وأجاهد لأفر وأهرب من كابوس دموى ساكن فى اللاوعى، وسعيا لفهم المستحيل أحاول فهم ما يدور حولى لتفســيره بعد الإفاقة والخلاص رغم قلة العزم وضعف الحيلة.

* * *

كان الأب الموجــوع يئن بوهــن ويعترض على فكــرة الرجوع للكفر، وبإلحاح منــا حاولنا إقناعه بأن وحدته بمدينة ليســت له فيها قرابات ترعاه وتتابع حالته علــى النحو المطلوب مغامرة مجانية، ورغم أنه قال – وصدقناه – إن جيرانه الغرباء يتابعونه ويهونون عليه وحدته فتحاملنا على أنفســنا وانفعلنا وحاولنا إقناعه بالموافقة علــى الرجوع لبيته وبلده وناســه أو أن يشاركنى مسكنى واغترابى بالقاهرة فلم يوافق، ربما إشفاقا علــى حالتى، ولعله اختار الرجوع لكفرنا ليريحنى من حمل همه، وفى نهاية الأمر وافق على العودة ليريحنا ويرتاح، كنت فرحانا وأنا أصطحبه مع شــقيقى الأكبر لدارنا البراح الموروثه من جدنا، طمأنته بعد عقود من فقــدان الأمان بوحدته واغترابه لســنوات متتابعــة متتالية دون أن يفكر فى الرجوع ليقضى ما تبقى من عمره فى داره، وشــعرت بالأمان المخلوط بالزهو لأننى صالحتهما وأعدت المياه إلى مجاريها الطبيعية والمألوفة.

فــى نفس الليلة وبعــد أن ودع كل من جاءوا للترحيب به فى بيته، تنهد وتأملنا ســويا ثم دس يده اليمنى فى جيب جلبابه وأخرج حافظة نقــوده، وضعها أمامه وتأمل وجهينا قبل أن يخرج لفافة الأوراق المالية منهــا ويعيد الحافظة الخالية لجيبــه، تبادلنا النظرات ونحن نرى كل

هذه الأوراق المالية فى حوزته، أشـار بيمينه إلى النقود التى وضعها فوق رخامة الترابيزة العتيقة لأسأل عن عمرها مستغربا صلابتها وقدرتها على حمل تلك الرخامة الزاهية والسميكة على نحو لم أر له مثيلا. كان يهز رأسه هزا متتابعا قبل أن يقول لنفسه أو يقول لنا:

– دول القرشين اللى عرفت أدبقهم ف الغربة.

تأملنا ملامحه باسـتغراب دون أن نعلق وتبادلنا النظرات ربما بحثا عـن بداية لحوار يليق. نظر إليه وواجهنى مسـتوضحا بصمته فتنحنح صالح وهز دماغه قبل أن يعلق على ما سمعناه بلهجة المستور:

– خليهـم معاك يا آبا، هو احنـا لا سمح الله محتاجين حاجة من حد ؟ ما تقول له يا استاذ.

– لجـل ما تشـتروا الدوا اللى كتبـه الحكيم. ومـا تحتاروش يوم ما يحين الأجل، أنا عايز أتكفن على حسابى يا صالح.

– ربنـا يطـول لنا ف عمرك. دا انت كده بتشـتمنا يـا آبا، واحنا ولادك. يعنـى ولاد الأصول، الناس تقول علينا إيه ؟ اتكلم يا أسـتاذ، انت موافق ع الكلام ده ؟.

– قبل الأستاذ ما يتكلم يا صالح، الناس ح تقول علينا إيه ؟

– خبر إيه يا آبا ؟ انت مش عارف الكلام اللى الخلق بتقوله علينا؟ ولـو عملنـا اللى انت بتقول عليه ح يقولوا إيه ؟ مش قادرين نشـتريلك كفن؟ فضايحنا ح تبقى بجلاجل، ساكت ليه يا أستاذ؟.

– أقول إيه ؟ اللى أبوك عايزنا نعمله، نعمله، بينا وبين بعض.

- هو فيه حاجة زى دى بتستخبى يا أستاذ؟

تحيرت ولم أتمكن من الرد، وساد صمت ثقيل قبل أن يواصل بلهجة مغايرة وعيناه على لفافة الأوراق المالية، قبل أن يرفعها متظاهرا بالاستهانة وهو يهزها بيده ويسأل:

- كام دول يا آبا؟

- ما بتعرفش تعد ؟ ما بتعرفش، ولا عارف، وبتستهبل؟

- ح استهبل على إيه ؟ الحكايه ما تستاهلش، ما تحضرنا يا أستاذ، إحنا لا سمح الله ح نجدد اللى راح؟

- بلاش نجدده، بس عايزكوا تريحوا قلبى يا جماعة.

قالها بصوت محايد يتعارض مع ما كنا بدأناه حوارا يلزم أن ينتهى، وبآلية دس صالح رزمة الأوراق المالية فى جيب جلبابه، كان يهز رأسه بارتياح لا أدرى إن كان بسبب ما صار فى حوزته من أموال الأب التى وضعها بجيبه، أو أنه كان دفئا يشعر به إنسان عندما يجد مبلغا لا يخصه على أرض خالية، هز أبى رأسه وتابع آمرا:

- مش تقسم الفلوس دى مع أخوك ؟ أنا أخاف ربنا يحاسبنى، اقسمهم مع أخوك لجل أموت مرتاح، مش أحسن؟

تأمله بعينين معترضتين ومقيدتين بالحذر من الاندفاع على نحو يتعارض مع ما دار بيننا فى بيته الكائن وسط المدينة المجاورة لكفرنا فى آخر لقاء، وعلى نحو موجع أخرج الأوراق المالية ووضعها أمامه على السطح الرخامى العتيق لترابيزة المندرة الكبيرة فواصل أبى ما بدأه آمرا لصالح:

- اقسمهم يا صالح وادى أخوك نصيبه، وخللى معاك نصيبك، ح تعرف تعد ولا أعدهم لك ؟

- براحتك يا آبا، عايز تعدهم عدهم.

- اقسمهم يا صالح، اقسمهم بالبركة.

انشغل صالح بعد الأوراق المالية واقتسمها نصفين، وناولنى بيده النصف الذى يخصنى ودس فى جيب سيالته ما يخصه.

***

اختليت بروحى فطاف بخيالى سؤال : هل خروج البدن من أى دار بعد تغسيله وتكفينه يثبت الشراكة فى ملكيتها؟.

كان سؤالا ممرورا بلا جواب، لكنه أعادنى لزمن بعيد ... بعيد، ومحاصرا بسؤالى الذى لم أطرحه جاوبت نفسى أن مكان التغسيل والتكفين لا يثبت أى ملكية، واستعدت يوم سفرى وصالح يجاملنى ويرافقنى ويوصلنى لمحطة القطار، بعد أن اقترحت عليه أن نشترى للأب كفنا من حر ماله، كان مغلوبا على أمره وعاجزا عن الاعتراض فسايرنى وتشاركنا بجزء من ماله الذى اقتسمناه واشترينا كفنا من سبع طاقات وبالتوصيف الذى قاله «لو مت تشترى لى كفن حرير سندسى سبع طاقات» شعرت أننى أوفيت بوعدى له لكن سؤالا غيبنى عن الوعى وأخافنى أن يصيبنى الجنون أو الكراهية الكامنة:

- هل تغسيل البدن الميت وتكفينه فى أى بيت يثبت أنه شريك فى ملكيته؟ وتهت وتحيرت.

كنت أراني ظلا يتحســس طريقه – على مهل – لنهايته الجبرية. ولأنهــا جبرية لا يملك أى كائن حى أن يفر منها، فهونت على روحى الأمر واســتعدت وجه أبى يــوم حدثنى بثقة العارف إنه يتجه لســكة الرحيــل عن دنيانا. اعترضت إشــفاقا عليه وواثقــا بأنه يصف حالته صادقــا معى ومع نفســه، لأن العبارات التى سمتعهــا لم تكن افتعالا ولأنه كان يســتند على حقائق مؤكدة. فتحاملت ولم يسعفنى أحد. لأن الخبطات كانت تخلّــف فى البدن المهدود مزيدا من الكدمات والجروح بآثارها الظاهــرة والمخفية. ولأن خطواتى المتعثرة فى كل محاولة للفرار كانت تبوء بالفشــل. أتحامل وأقول لروحى المحبوســة فى هذا البدن المكــدود المنهك وقــد أصابته من كل الزوايا خبطــات نيران صديقة كما يقولــون فى أجهزة إعلامهم الموجهــه للضحايا بغرض التخويف. أقول لروحى همسا خافتا «يلزم أن تصمد وتتحامل على روحك لتواصل دورك رغــم المعوقات والحواجز المحطوطة فى كل الأركان» لكنها كانت روحا معاندة. تتســمع ولا يبدو عليها أى رغبة فى مواصلة المشــوار المطوط. وبخطواتها الفاعلة والمؤثرة فى سباق المسافات الطويلة. السباق المفروض والفعل المحاصر والمحســور على الجهد الضائع هدرا لأنه لم ينتج عنه أى إنجاز محسوس. أقول لروحى وأنتقدها. حتى عدم حصولك على أى ثمار لتعويض روحك عن سعيك المتواصل بغرض الاسترخاء بعد الوصول إلى تباشــير تلك الثمار التى بدت لروحك مستحيلا تم تحقيقه لحسابك على النحو اللائق بمن سعى وظل يسعى ويبذل الجهد بكل طاقته وأكثر من طاقته. وقد كابدت بقدر المســتطاع متخطيا حدود المستطاع لتحتمل

المكابدة المفترض أن يكون مردودها محسوسا وملموسا مادام ضروريا ومؤثرا ومشـــروعا فى نفس الوقت. وطاف بالخيال حلما من اللازم أن يتحقق. كان منوطا بك أيامها أن تواصل الســعى فى الفراغ، وكان من الضرورى أيامها أن تتجاهل من يحيطون بك وتبدو على ملامحهم حالات متفاوتة من الإشفاق الجوّانى عليك. ربما لأنهم كانوا يتوقعون انكسارك. ولم يكن من الممكن بحساباتك الوصول إلى توهان العقل الفاعل، أو التشبث بتأدية الــدور ما دمت تملك أدواته ولديك المخزون الســاكن والقابل للتحرر فى صور مرســومة بالخيال قبل أن تتحول إلى رســوم تلفــت الأنظار، وهو يتحــدث مع روحه ويــزرع الأوهام حولها ليضيف جديــدا كلما طافت روحه فى البدن الثانى، وكم حاولت روحه أن تفر من مصيرها المحتوم. ولم يكن تفكيره فى الفرار جبنا أو استســلاما، ولم يكن عجزا ولا ضعفا ولا تهاونا فى الفعل بغرض التحقق، كنت أراه وهو يحاول أن يلملم كل أطراف الحكايات التى تجرى أمامه ليسجلها ويدين فترة عاشها مكرها ومسلوبا ولم يحتج.

***

صحوة خلية حية وحيدة

رأيتنى فى المنام المطوط أغتسل وأتطهر استعدادا لصلاة عيد الأضحى. كنت فى المنام متشككا أن هناك عيدا أضحى فى تلك الأيام لكننى كنت أغتسل وأتوضأ وأهيئ نفسى لتأدية فرض صلاة العيد بينما أرى شمس النهار فى منتصف السماء تماما بما يوحى بأن ظهيرة اليوم فاتت لتوها أو شارفت على الاقتراب. أتهيأ لسماع صوت المؤذن القوى المتميز الذى ينادينا بصوته المجلجل فى صحونا أو منامنا خمس مرات كل يوم من غير مكبر للصوت لينبهنا لمواعيد الصلاة. كنت واثقا أنه مؤذن مظلوم فى حياته لأن صوته القوى الصافى واضح الحروف يستحق أن ينطلق من مكبر صوت محترم كجهاز التلفاز أو الإذاعة أو حتى من مسجد الحسين بن على أو السيدة زينب رضى الله عنهما وأرضاهما بدلا من تلك الزاوية المتواضعة الكائنة وسط المنطقة شبه العشوائية المعزولة التى نسكنها فى وسط المدينة. وفى البعيد من كل الزوايا كنت ألمح بنايات عالية وأتخيل ملامح أنصاف الأكابر أو الأكابر الغافين أو الغافلين عنا. فأتخيل صورة من كان فى السابق يؤذن فى مالطة رغم عدم استجابة سكانها لندائه لكنه يواصل مكتفيا بالقلة التى تستجيب وهم من غالبية ناس منطقتنا الودعاء وكأنما الساحات المسكونة حولنا من كافة النواحى لا تنشغل بدعواته وكأنه يؤذن لفقراء منطقتنا العشوائية وحدهم أو أن

للآخرين لغة غير لغتنا. وكنت أتصور أن بناياتهم الشامخة التى تحاصر منطقتنا شبه العشوائية هى التى تتشابه مع مالطة - التى لم تطأها قدماى أو فكرت مرة في زيارتها لضيق ذات اليد - وتقوم بدور بحر يحيط بجزيرة فقراء نعيش أو نتعايش في جنباتها لرعاية عيالنا ولا يحق لنا الشكاية من أصحاب ذلك البحر القادر على اغتصاب حدودنا حتى لو رموا علينا مخلفاتهم. يتأكد لى فى الكابوس أن الدنيا حظوظ وأن وراء تلك القسمة غير العادلة حكمة تجل عن إدراك أمثالنا من البشر الساخطين أو الباحثين عن عدل مطلق لم يتحقق على سطح أرضنا الظالم أهلها وناسها فى الصحو أو فى المنام أبدا. كأنه من الممنوع أن يعترض أى واحد منا على أنواع الغبن والأذى أو حتى عن القيام بردود أفعال متواضعة تشبه من حيث الشكل الاحتجاج على من يستبدون بنا مثلا أو يستبيحون بيوتنا بينما يعيشون حولنا ليضيقوا علينا الخناق يوما فى إثر يوم. وكنا نعرف أن الكلام فى الفراغ أهون من فعل اليد القادرة على التغيير وأفعل من الخرس والكتمان فى القلوب بديلا عن القول. وفى بعض حالات الصحو كنت أرانى مثله تماما على نحو غامض أؤذن فى مالطة التى صارت تخصنى وأراها وهى تحاصرنى وتحصرنى ولا يفصلها عنى غير فاصل وهمى. صحيح أن منطقتنا شبه العشوائية المعزولة فى بطن تلك المدينة كانت تتكلم نفس اللغة التى ينطقون بها أو يقرؤونها وأن التواصل بيننا وبينهم كان ممكنا لو فكروا فى الانشغال بمواجعنا وهمومنا. لكنهم كانوا يتجاهلوننا بأوامر صدرت لهم فى السابق من آبائهم ليتعاموا عنا بقصد. وعندما غامرنا بالذهاب إليهم عدة مرات

لنحاورهـم فى احتمـال أن تصيبهم أضرار قد تفرزهـا جراثيم أو أوبئة محتملـة تتخلق أو تتوالـد فى البؤرة المهملة لو بقـى الحال على ما هو عليـه. أبعدونا وأعادونا إلى حيث نعيش. وصـرت مثل غيرى ممنوعا بشكل غير رسمى ولكنه متعمد. لا أتمكن من الوصول لعقول المحكومين من ناسهم بفعل مجموعة الفعلة لأصير مثل مؤذننا المغبون الذى يتصامم النـاس عن سماع صوته فى المحيط الـذى يلتف حولنا ويضيق حدودنا لصالحه. وكنت أحيانا أمنع نفسى من الاسترسال فى التفكير على هذا النحـو حتى لا أصاب بالجنون أو تداهمنى سـكتة قلبية مثل تلك التى داهمت الآلاف من الناس فى منطقتنا العشوائية المدفونة فى قلب المدينة وقد تدنت متوسـطات أعمار سكاننا عن نصف متوسطات أعمار سكانهم هناك.

لعـل الهمّ الأكبر الذى انشـغل به هـؤلاء الذين رحمهـم المولى من شـركائى فى منطقتنا هو سـؤالهم المتكرر لذويهم قبل الموت عن المدافن التى سـوف يوسـدون فيها أبدانهم. كلنا كنا نعرف أن المنطقة الضحلة التى تجمعنا كانت معزولة مهملة وغير محسوب لها حسابات. صحيح أنهـا فى البدايات تمددت وتوسـعت وللمـت الآلاف وآلاف الآلاف. لكن أرضها ضاقت وصارت هشـة ومعجونة بالنشـع دوما بسبب زحف المخلفات الظاهرة والمخفية من تلك المساحات المحيطة بها ودون مراعاة أو رادع أو حقوق جيران لهم شفعة. وكانت المحصلة فى نهاية الألفية الثانية مؤسفة ويصعب التنبؤ بما يمكن أن يصير إليه حالها فى مستقبل الأيام.

رأيت الناس - فى الكابوس الناعم البدايات شـبيه الحلم المطوط- يتحاورون فى مشكلة فرعية صارت تؤرق الكثيرين من سكان تلك المنطقة العشوائية ووصل الأمر إلى حد أنهم صاروا يتأففون ويعبرون عن سخطهم بجـرأة لو انفتحت سـيرة النهايات المحتومة بدفن الأبدان وسـط رماد مشـبع بمياه جوفية يتحول أمام العيون لطين طرى لا تجففه شمس الله السـاطعة التى تكوى أجسـامهم طوال أعمارهم فتتصبب أبدانهم بعرق الشـقاء المالح الذى ينضاف إلى مخلفـات المدينة التى تحاصرهم من كل الجوانب. بعضهم كان يسـخر من المفارقة ما بين سخونة سطح الأرض وطـراوة باطنهـا قائلين إن البنـى آدم مخلوق من طـين الأرض وإليها يعـود ليرحمه الله من نـاره الأقوى آلاف المرات من نار شمسـه، لكن المقارنة فى واقع الأمر كانت غير مبلوعة للناس. ربما لأن نار الشـمس الحامية تتشـابه ولو من بعيد مع الجحيم الذى خصصه المولى تبارك فى سماه للعاصين من عباده. لكن الطين لا يشـبه الجنة الموعودة على أى نحو. كانت دعابة سـخيفة ومتداولة سـرت بيننـا، وكنا نقر ونعترف أنها حالة استسـلام ناتج عن العجـز حتى عن الحلم فى اختيار مدافن جافة تحمى الأبدان والأكفنة من وسـاخة الطين التى تسهم بالقطع فى غزو الأنوف بروائح الموت السـارح فى كل الأنحاء يسـرى فى الدروب والحوارى المسدودة والمنعطفات والأزقة على العكس مما يحدث هناك فى مدافن المدينة التى تحاصرنا بجدار وهمى عازل والتى ينعم فيها أمواتهم بجفاف الصحراء. عبثا كنا نحاول استخدام تلك المقابر لكن أكابر المدينة والمسـئولين عنها كانوا يطالبون برسـوم باهظة لعبور النفر منا شوارعها

للمشـــاركة فى مشهد للدفن لم تكن فى حوزة أغلبيتنا بالإضافة لتكاليف يتكبدهـــا الراغب فـــى بناية أى مدفن تباع أرضه الغالية بالمتر المربع فى فراغ صحرائهم. وكانت المحصلة بالنســبة لســكان منطقتنا همّا خالصا نتعايش فيه ومعه ويصعب الخلاص منه إلا بمعجزة أو الاستســلام التام للدفن فى الطين.

* * *

فـــى الكابوس البغيض رأيتنى ممددا على «دراية» الغســـل أستشـــعر دفء المـــاء الذى ينصب علي بدنى «بكـــوز» نحاس أعرفه تماما وأعرف أنه كان يخص أمى رحمها المولى وكانت تستخدمه لسقايتى لو بحت لها بعطشي. وكثيرا ما كانت تسألنى إن كنت أشعر بالعطش فأكتشف أننى بالفعل أرغب فى شـــرب ماء كوزها الرطب فأرتوى كما كان دفء الماء المصبوب من نفس الكوز على بدنى العريان ينعشنى عندما تصبه المرحومة أمى على رأسى وتدغدغنى بأصابعها الطرية والحنونة قبل أن تملأه مرة أخرى وتصبه على بدنى فى ســـنوات طفولتى المبكرة فأضحك وتضحك هى أكثر عندما أتعلق بها فتحتوينى فى حضنها الدافىء وتجفف بدنى المبلول بثوبها الجاف قبل استخدام المنشفة. لكننى فى الكابوس المطوط لم أكـــن بقادر على الحركة أبدا أو الضحك أو التنفس فى ذات الوقت. كل ما كنت أشـــعر به هو أننى قادر على سماع أصوات متداخلة أعجز عن التمييز بينها كلما زاد الصخب. أقول لروحى بينى وبين روحى إنه الموت وقد جاء فى موعده المكتوب بالقطع دون أن أحسب له أى حساب شـــأن كافة سكان المنطقة العشوائية الذين سبقونى بالرحيل ليرتاحوا من

هموم الدنيا ولينعم الصالح منهم «بجنة عرضها عرض السماوات والأرض أعـدت للمتقين» وأنا بالقطع منهم. كنت أتمنى لو سمعت صوت المؤذن ينادينـا للصلاة فلربما يسـاعدني صوته على الصحو مـرة أخرى لكنه لم يفعل رغم أن الوقت بحسـاباتي طال وطال وبدني الممدد فوق «دراية» الغسل مسـتكينا ومستسلما لكفين خشـنين لرجل لم أعرفه فى حياتى أبدا لكن صوته لم يكن غريبا عني. كان يتنحنح قبل أن يأمر مسـاعده ليسـاعده برفع سـاقي أو ذراعي أو رأسـي ليخلص من مهمة بدت له أصعب من كل المهمات التي أنجزها في حياته مغسلا لا يضمن لزبائنه الجنـة. ولعله تهيأ لي أنه كان صوت مؤذننا وقد وظف نفسـه مغسـلا ثم لحادا تسـكن يداه أبدان التعسـاء في المدافن الرطبة الموحلة. وعندما لفلفنـي هو «بطاقات» الكفن سمح لهم بـأن يحملونيْ إلى مدافننا الرطبة فحملونـي. كنـت أرى المدفن المفتوح أمامي مثـل فم أفعى ضخم جاهز لابتلاعي. لكـن الرجل لم يتركني أواجه الرعب وحدي وصار يوصيني ويمليني كيف أرد على عزرائيل وأعوانـه من ملائكة الموت عن يميني وعن يساري كلما سألوني ليتأكد لهم إيماني فتأكد لي أنه هو بعينه المؤذن المغبون ساكن منطقتنا العشوائية.

***

فـي الكابوس المطـوط والمتجهم كنت أشـعر أن أنفي وفمي وخلايا جسمي نفسـها كانت مكرهة على ابتلاع الطين الرطب من كافة الزوايا رغم أن ملائكة اليمين بشروني بالجنة فشعرت بالنشوة للحظات خاطفة وتذكرت دغدغات أصابع أمـي الحنونة وهي تحتويني في صدرها بعد

الاستحمام بمائها الدافئ. لكن الفرحة لم تكتمل أبدا لأن مكونات المدفن كانـت تتداعى وتتداعـى وتحاصرنى وتحصرنى وكأنهـا مكلفة بإزهاق الروح التى أزهقت منذ ساعات. ولو كان بإمكانى أن أصرخ ما ترددت، وبنصف الوعى أو ربعه أو هامشـه الباقى كنت أسأل نفسى كيف يموت الإنسان فى اليوم الواحد مرتين ؟

***

لابـد أن بقايا الخلايـا الحية فى بدنى كانت تسـتعيد رغم ضراوة الكابوس المطوط ما كان قد جرى لى فى السابق عندما كنت أنعم بالحياة وأتعايش رغم العسر مع مفردات الواقع الصعب. ولابد أن الخلايا الحية الباقية فى الكابوس كانت تخصنى وتعرف أسرارى ومواجعى وتاريخى الذى انقضى وأسماء عيالى وزوجتى وخسائرى ومكاسبى وبعض أحلامى وأمنياتى المشـروعة التى لم تتحقق أبـدا وتلك التى بدا لى أنها تحققت ولو بشكل جزئى كان يكفينى أيامها ويبعث فى القلب شيئا من الفرح. صحيـح أن أيام الفرح كانت قليلة لكنهـا كانت تكفينى على كل حال لمواصلة مشـاويرى باعتبارى سـاكنا بالمربع العشوائى يستجيب لمشايخ المنطقة المهمشة عندما يؤكدون لنا أن «القناعة كنز لا يفنى».

كنت أفتقد ملامح زوجتى أم عيالى وصوتها المألوف خلال تلك الفترة الحرجة التى أوشـكت أن أنعزل خلالها تقريبا عن الإحساس أو العجز التام عن الحركة بما أوحى لكل من شافونى بأن أجلى انقضى. أتحسس بالأذنـين نبرات صوتها الملتاع بين الأصوات فلا أتسـمعها. أتذكر أنها كانت قد اتفقت معى على شراء أرض لبناء مدفن جاف بين مدافن تلك

المدينة التي تحاصرنا فتطمئنني في كل مرة بأنها ستدبر أمورها على أحسن وجه إذا انقضى أجلي أو جاء يومي قبل يومها وتؤكد قائلة باقتضاب:

– ومن حر مالك أشترى لك وباسمك مقبرة صحراوية هناك.

أسألها أحيانا عن كم المدخرات التي تمكنت من توفيرها خلال السنوات الفائتة فتبتسم وتهز رأسها بما يفيد بعدم رغبتها في البوح. من ناحيتي كنت أتقبل المسألة واثقا أنها سوف تدبر أمرها وأمرى وتفاجئني بأنها اشترت الأرض يوما بمبالغ كانت بحساباتي واعترافاتها فروقا بين ما كنت أدفعه لها مصاريف بيت وعيال في مدارس وإيجار مسكن وأثمان ثياب لها ولنا وما أنفقته بالفعل:

– خيرك الكثير في ذمتي ليوم الدين ومن آمنك لا تخونه فلا تحاسبني، بيني وبينك ربنا المطلع على ما تخفي الصدور.

كانت هي بالنسبة لي مأمونة إلى حد أنني لم أفكر مرة في أن أخفي عنها أي مبالغ أحصل عليها من عملي أو بدلات سهري أو مكافآتي عن الأعمال الإضافية التي أجهد نفسي لإنجازها لتكفينا وتسترنا وتغطي مطالب الحياة وختامها بما يليق بنا. تظهر مودتها لي وتدعو مولانا الكريم بأن يزود أرزاقنا ويحنن علينا قلوب كل المسئولين فأفرح وأسر لها أن علاوة استثنائية سوف تضاف لمرتبي أول السنة المالية الجديدة. ألاحظ فرحة تقاطيعها الدقيقة وأقول لنفسي إنها وفية قطعا وراضية بالمقسوم لها معي. أواصل حياتي مطمئنا في حضنها الدافئ وأمنّي نفسي بأن يكون مأواي – عندما ينتهي عمري مدفنا – جافا كسكان

مدينتنـا المحاطة بصحـراء مترامية والتى نتعايش فى قلبها العشـوائى مكرهين أو عاجزين بالفعل عن تبديل مساكننا شبه المدفونة ببطن المدينة الرطب والمشـبع بكل أنواع النفايات والمخلفات دون أن يكون لنا حتى حـق الحلم فى تبديلها أو تعديلها. وعزاؤنا حكمة تقول إن عرض الدنيا زائـل وإن العبرة فى الختـام المحتوم. ومحظوظ محظوظ من يقنع بأقل القليل ويرضى به فيكون مصيره المؤكد هو نعيم الآخرة وخلود الروح وسط «جنات تجرى من تحتها الأنهار».

لكن ما جرى لى فى تلك الرحلة غير المتوقعة جعلنى أراجع حساباتى فـى الوقت الضائع كما يقولون بينما كتـل الطمى تحيط ببدنى وتكبس عليـه وتنفذ من فتحتـى الأذنين والعينين والأنـف ذى المنخارين والفم أيضـا، أجاهـد أن أتململ فلا أسـتطيع ويتأكد لى أننى بدأت مشـوار التحلل أسـرع مما كنت أتوقع فى أعتى كابـوس صادفته فى حياتى. وصحيح أن عمرى الذى عشته كان مشحونا بكل ألوان الكوابيس المتتابعة المكـررة التى أعجز أحيانا عن لملمة تفاصيلها أو بعض تفاصيلها فى أى صحوة فزع للفرار منها. لكن الصحو المفزوع نفسـه كان مخرجا ومهربا بالنسـبة لى أحيانا، ربما لأننى كنت أتمكن من تحسس بدنى أو القدرة على تجفيف دمع العينين الباكيتين من قسـوة ما شاهدت واستشعرت. لعـل بقايا الخلايا الحية التى تخصنـى فى الكابوس تأكدت أن العودة للحياة مسـتحيلة فاختارت السكون الكامل استسلاما ممقوتا بحساباتها هى نفسـها، لكنـه لم يكن لديها اختيارات بديلـة بالقطع. وعلى نحو خاطف تشددت خلية حية واحدة واتخذت موقفا مغايرا فظلت صاحية

ترقب وتحصى وتحاول أن تصل إلى موقع أفضل كى تتاح لها الفرصة من خلال عزمها المتواضع لعمل معجزة لا يتوقعها البدن كله وقد حاصرته من كل الجهات كتل الطين اللزج، ولا أدرى كيف تمكنت تلك الخلية الوحيدة من هزيمة الاستسلام الكامل أو كسر حالة السكون المقيت، وكانت المحصلة صحوة مفزوعة للبدن المحبوس فى الكابوس المطوط تعيد ربطه بالحياة وتنفض عنه علامات الموت ليعيش من أول وجديد، يفكر فى الخلاص من كل ما شافه من الجمود فى سكون بلا أمل فى الحركة أو القيام، يعود النبض للقلب وتصحو الذاكرة ويفيق الدماغ فأقوم وأتحرك لأؤكد لروحى أننى عدت للحياة مرة أخرى وتخلصت من الكوابيس المجانية مهللا بفرح طاغ وصارخا لنفسى ولمن يحيطوننى بأننى سأواصل الحياة مرة أخرى وأعيش.

***

فى المنام الوردى رأيتنى أميز ألوان الطيف والألوان المتداخلة بينها، آلاف الألوان تتجلى لى وأنا فوق ربوة مزروعة بنباتات نادرة ومألوفة وثمارها دانية القطوف، أسكن فوق مقعدى واثقا أنه من الممكن أن أنال ما أبتغيه بأقل جهد متاح، تنتفى تلك المشاعر البغيضة التى كانت تداهمنى فى الكوابيس المتواترة التى كابدت من ضراوتها، وأسأل نفسى كيف نجوت وظللت صاحيا لأشهد وجها مغايرا للحياة يتأجج فيه الأمل العريض فى الصدور وأنسى مواجع قلبى وصماماته الصناعية المزروعة إلى حد أننى تشككت فى وجودها وكأنها لم تكن أبدا، أرمح فى البراح المزروع بالخضرة بكل درجاتها وأتحول إلى نسمة بارعة فى

النفـاذ لكل الزوايا والأركان بمثل ما هى بارعـة فى الصعود إلى الفضاء الأعلى أو الغوص فى الأعماق السحيقة دونما هيبة أو قلق، تزيد دهشتى لأن سـر هـذا التحول كان بفعـل خلية و حيدة معانـدة، أسمع صوت المـؤذن ينـادى للصلاة فأفرح لأنه نفس الصوت المألـوف الذى لابد أنه كان يتمكن من تجميع المؤمنين من كافة أنحاء المدينة البراح وقد توارت فيها الحدود بين ما كنا نحسبه منطقة عشوائية قديمة ومعزولة بتعسف مفتعل برغم كونها تقع فى قلب المدينة أو صرتها. أصعد لمسكنى فألتقى بعيـالى وأرى فى عيونهم فرحـة اللقاء بعد الغياب ويتأكد لى أننى غبت بالفعل زمنا لا يسـتهان به، يتبـدى لى أن أعمارهم تضاعفت على نحو لم أكن أتوقعه، لكنهم نفس عيالى وقد تخطوا مراحل الشباب وتحولوا إلى رجال ونسـاء مسئولين ولهم وجاهة اجتماعية ظاهرة، أفرح بهم وأوشك أن أطـير حولهم قبل أن أسـألهم عن أمهم فيطرقون برؤوسـهم ويغلف الصمت تقاطيعهم، أتوه وأغير الموضوع وأسـألهم عن أحوالهم فينفتحون ويتحدثون بتباه عن معجزة خلية وحيدة خالدة تسببت فى صحوة قلب مدينة خاملة وأعادتها كما كانت فى البؤرة نظيفة وواعية بدورها الخلاق فأتعجب لأنهم عرفوا سـرا حسبته يخصنى وحدى وأتخيلنى روحا من عـالم غير عالمهم وزمنـا غير زمانهم تتجلى لها أحلام وردية لم تتحقق إلا بعد التضحية بالعمر نفسه.

طلوع روح صباح العيد

كان قد ارتاح من مواجعه تقريبا أو بدا له ذلك فقال لروحه بينه وبين روحه : يحق لك يا ولد أن تفرح «وتزيط» مثلما يفعل العيال. اعتاد أن يفي بكامل حريته بنذوره التى قطعها على روحه بعد نجاته من الكوابيس خلال السنوات الخمس الأخيرة. أقبل على الحياة مرة أخرى وتجدد. تخلص من عاداته الشريرة التى سكنت عقله زمنا ودفعته ليعترض على العلاقات الزائفة بحساباته ويتخطى حدوده أحيانا بانتقاد كل ما حوله بلا مواربة.

أيامها كانت الأشياء والناس والبنايات واللغة تتبدل من حوله بإيقاعات أسرع من قدرته على ملاحقتها ومسايرتها حتى لو أراد. ولأن ردود أفعاله كانت حادة فقد صار متهما باستعداده لمعاركة الناموسة إذا حامت حول دماغه أو زنّت قرب أذنه. تزايدت وحدته وخسر صداقات وعلاقات وأقارب من إخوة وأخوات مرورا بأولاد العم والخال وفروع عائلة ينتسب إليها بحكم الميراث. تباعدوا عنه فتباعد وارتاحوا منه فارتاح. لعله أيامها راجع نفسه ألف مرة ولم يكتشف أنه أخطأ فى أى شىء أكثر من أنه كان يختلف ويعلن رأيه بصراحة لا تعرف المواربة. كان لا يتمكن من التنازل عن مواجهة ما يحيطه بحرية ودون تردد. وقال البعض إنه مصاب بمرض نفسى خطير ونادر. وقال البعض إنه

عاجز عن المسايرة اللازمة لاستمرار الحياة، واهم أنه يعيش فى زمن غير الزمن كان يتطلب مثل جسارته النادرة، كان يؤمن بأنه يحق للإنسان أن يعيش عمره حسبما يرغب ما لم يتسبب فى أضرار لأى أحد، وكان يرفض أى وصاية عليه من أى كائن حى، لكنها على أى حال كانت مقدمات لوجع من نوع نادر إذا اعتبرنا الكوابيس المتتابعة التى بدأت تقتحمه حالة مرضية يكابد منها فى نومه وصحوه ويتشكى من عنفوانها وتجبرها لروحه ولمن يثق فيهم من الأصدقاء القدامى، كان يؤكد لهم أنها كوابيس من نوع خاص قادرة على خنقه واستلاب عمره، لكنهم جميعا أفهموه أن المسألة بسيطة ولا تستدعى قلقه الزائد فلم يقتنع وتشكك فى إمكانية إصابته بمرض قليل الانتشار يستلزم علاجا خاصا يخلصه من الكوابيس الشرسة والضارية التى تفزعه وتفسد عليه حياته فى الصحو والمنام، دار أيامها على أهم المتخصصين فى تفسير وتحليل الأحلام والكوابيس من أساتذة علم النفس الكبار فأبدوا استهانتهم بالظاهرة وحاولوا طمأنته ووصفوا له بعض المهدئات والمسكنات فلم تفلح فى التخفيف عنه بل زودت كوابيسه فزودوا الجرعات فانفتح القمقم وخرج المارد الكامن فى داخله لأن الكوابيس تزايدت وبرزت أنيابها، أوصوه بإجراء تحاليل خاصة فقبل أن يجلس أو يرقد داخل أجهزة قائمة أو مائلة أو أفقية دونما اعتراض على توصيلات بأسلاك قاتمة ملونة تلتصق بأطرافه وبدنه أو تدخل فى شراايينه برؤوس إبر طبية لم يسبق أن رآها فى كل حياته أو تخيل وجودها على سطح الكرة الأرضية، وكان يرى بدنه على شاشات التجسيد الكائنة قبالته والسوائل الملونة

تسـرى فى شـرايينه فيتلون دمه بكل ألوان الطيف المباشرة والمتداخلة. لكنه كان مشوارا ضروريا ولا فرار منه. لعله بحسابات روحه عن روحه كان جسـورا. وربما قال البعض إنه كان متهورا لأنه يدخل تجربة غير مسـبوقة بسـبب أوهامه أو رغبته فى الخلاص من الكوابيس والأحلام. مـع أن بعض النـاس اعتبروها لازمة وضرورية لتتـوازن الحياة بمعرفة الفـروق بين الحلم والواقع. لكن حالته لم تكن مجرد كوابيس عابرة بل مجموعـات متتابعة يصعب عليه الخـلاص منها أو الفرار منها بالصحو المفزع قبـل معاودة الرقاد لأنها كانت تعود بنفس ضراوتها وتكمل نفس أحداثها الدموية. يسـأل روحه عن السـر ويسـأل من يتعامل معهم من الفاحصين وخبراء التحاليل والأصدقاء،القدامى أو المعارف فيبدو له أنهم يسـتنكرون أو يكذبون أو يوشكون على اتهامه بالمبالغة بغرض الحصول علـى بعض الإشـفاق أو التضامن معه. لكن العقـلاء منهم نصحوه بأن يستشـير أسـاتذة كبار فى العلاج العضوى لأنه من المحتمل أن المسألة ليـس لها علاقة بالكامن فى اللاوعى فلم يـتردد. دخل تجربة جديدة ودار فى كل أركان المدينة قبل دخول أشهر مستشفى خصوصى لتجرى لـه الفحوص اللازمة. وعندما أخبره كبير الجراحين أنه سـوف تجرى له عملية فى القلب على وجه التحديد لم يطرح السـؤال الذى كان على طرف لسانه:

- ما هى العلاقة بين القلب والكوابيس ؟

لكنـه وافق على قـرار الطبيب الذى أضاف له فى نفـس المقابلة بأن وفدا من الأطباء الأجانب والمتخصصين سوف يأتون لعمل عدد محدود من

الجراحات المتشـابهة ومن بينها حالته إذا وافـق على أن يدفع لهم فرق التكلفة بالعملة الصعبة فتفكر وطافت فى خياله جداول الضرب والقسـمة والجمـع والطرح ثم وافق، غامر وبـاع ميراثه من الأرض التى لم يفكر قبل ذلـك أبدا فى التفريط فى قيراط منها. لعله كان يشـعر بأن الدنيا سـوف تضحك له مرة أخرى فأسـلم روحه وبدنه فى اليوم المحدد للفريق الوافد مـن هناك، ابتسـم له من كان يحمـل فى يمينه إبرة البنـج ويقتحم بها لحم مؤخرته. أحس بغيبوبة لم يفق منها إلا بعد يومين بليلتين بحسـب ما أكدت له كبيرة الحكيمات الأجنبية بلغتها الأجنبية وهى تبشره بنجاح وفد الأطباء الأجنبى مع كبير الجراحين صاحب المستشـفى الخاص ولأول مـرة بإنقاذه المؤكد من كل الكوابيس التى اسـتأصلوا مركزها بعدما كانت كامنة فى داخل قلبه وجاهزة للخروج لتقضى عليه فى أى وقت. وأضافت أنهـم زرعـوا فى القلب صمامـا مخصصا للكوابيس يقـدر على منعها من التسرب مرة أخرى ففرح وجهز روحه ليعيش فى سلام وينام فى سلام.

كانـت أم العيال الفرحانـة بنجاته قد نذرت نذرا بذبح عجل سمين فى كل عيد أضحى بغرض توزيعه على الفقراء والمسـاكين ولم يعترض، وكان فى كل عام من السـنوات الخمس الأخيرة يفى بالوعد ويشـترى عجـلا لائقا قبل وقفة عيد الضحية ثم يسـتدعى جزارا محترفا ليذبحه ويقطعه ويقسمه أكواما لتوزيعها على من يستحقونها.

لعله خلال السـنوات الثلاث الأولى وقد تخلـص من الكوابيس كان يفتقـد الأحلام والمنامـات ويتمنى لو رأى حلما وديعـا طيعا مثلما كان يحدث فى طفولته وصدر شـبابه. لكن الأحلام رجعت فى العام الرابع

ربما تحقيقا لرغبته غير المعلنة لتناوشــه مرة كل شــهر. كان يصحو من نومه فرحان ويروى منامه أو حلمه بكل التفاصيل التى شافها لأم العيال التى كانت تفسرها دائما على أنها خير آت لا ريب فيه.

لكن الكوابيس عادت ناعمة فى البداية ممزوجة بالأحلام، ثم زادت شراستها على مهل ولكن بدأب حتى أصبحت مثلما كانت وربما أكثر. قال الطبيب المعالج صاحب المستشفى الخاص أن المسألة خرجت من يده على كل المستويات وأن العلم عند المولى جل فى علاه. سأله عن الصمام المزروع فى قلبه وما إذا كان له عمر افتراضى يتطلب التغيير أو أن يكون مجهزا للزرع فى قلوب البشــر لفترة محــددة يتلف بعدها وينعدم أثره؟ فنفى الطبيب معرفته بأى شيء عن ذلك الصمام الذى يتوهم أنه انزرع فى قلبــه على نحو ما يقول. وقال إنه من الممكن أن تكون كبيرة الحكيمات كذبت عليه وهو افتراض مستحيل، أو إنه لم يفهم الاصطلاحات الطبية لأنهــا كلمته بلغتها ثم أضاف إنه من الممكن أن يكون هو قد تخيل ذلك الــكلام فــى غيبوبته التى طالت، وقــال أيضا أنه مــن الممكن أن بقايا الأحلام والكوابيــس التى تخلص منها بالجراحة قد تمكنت من ذاكرته ورسمت لــه حوارا لم يحدث مع كبيرة الحكيمــات التى تتميز بالقدرة على الكتمان وحفظ الأسرار. تاه فى أمر نفسه وانسحب بنظام من المكان بعد أن سدد فاتورة الاستشارة الطبية.

* * *

فى بداية الكابوس فقد روحه وتخلف البدن، لكنه حام بروحه حول الولد الكبير الذى كان يقوم بعمل اللازم لدفنه. يســتأجر ســيارة الموتى

ويشترى الكفن ويسافر به مع أمه وأخوته إلى القرية التى ينتمون إليها. يغسلونه ويكفنونه فى داره ويحملونه فى نعش ثم يفتحون القبر ويحملونه ثم يرقدونه على ظهره بينما يقرأ الفقهاء سورا من القرآن الكريم. سمع عبارات التلقين وردد كل ما طلبه منه الملقن. لكنه عندما انسحبوا وقد انسك القبر على البدن رأى روحه تحوم حولهم وترافقهم فى رحلة العودة إلى مسكنهم الكائن فى تلك المدينة المزدحمة. لعله فى بدايات الكابوس كان مفزوعا من المصير الذى انتهى إليه بعد كل المكابدات. لعله كان يرى نفسه مظلوما منذ البدايات الأولى. لكنه فى غمرة الاحتجاج كان يصرخ ويسمع صوت نفسه، لعله تقلب فصحا لروحه مفزوعا ليكتشف أنه ما يزال حيا، بسمل وحوقل بمثل ما بسملت وحوقلت أم العيال. وعندما حكى لها الكابوس الذى رآه بشرته بالعمر الطويل وطالبته بتهدئة روحه قبل أن ينام، راح فى غفلة فرأى نفسه فى المكان ذاته والولد الصغير الذى كان قد امتحن نصف العام الأول واجتازه بنجاح يسعى إلى جواره للوصول إلى الجامعة وسط زحام لا يبشر بخير، صحيح أنه كانت هناك ساعتان باقيتان على موعد الامتحان لكن الطريق كان مزحوما بشكل يغيظ، أشاروا لعشرات من سائقى التاكسيات فلم يعرهم أحد أدنى اهتمام، قرر هو أن يرافق الولد سيرا على الأقدام لأن المسافة كانت تبدو له قريبة وممكنة، لكنه برغم العناء والمكابدة وصل مع الولد بعد بداية نصف الوقت المخصص بعدة دقائق، كان يأمل أن يسمحوا له مجرد سماح بدخول اللجنة واثقا من قدرة الولد على الإجابة، لكنهم أشاروا عليهما بالدخول من الباب المخصص لمن يتأخرون عن المواعيد

فـداروا حول مبانـــى الجامعة ودخلــوا من أبواب وخرجــوا من أبواب والدقائق تزحف مسرعة وقلبه يوشك أن يتوقف خوفا على مصير الولد، لكنه قام مفزوعا قبل أن يفقد روحه فى كابوس سخيف، شرب جرعات مــن الماء البارد من زجاجة ناولتها له زوجته التى كانت تحاول تهدئته وتعاود البسملة والحوقلة وتقرأ آيات من القرآن أيضا. لكنه نام وتاه عن الوعى مرة أخرى ليرى روحـــه المعذبة محاصرة بمجموعة من الجزارين الأشـــداء يحملون سكاكينهم وخناجرهم ومباردهم فى نفس الأحزمة التى كان يراها ملفوفة حول وســطهم أيــام الأعياد التى كان يفى فيها بنذره الذى قطعه على نفســه بذبح عجل سمين يقوم الجزار بتقطيعه وتقسيمه لتوزيعه على المحتاجين، تذكر فى الكابوس أنه لم يتمكن فى هذا العام من الوفاء بنذره لأســباب متداخلة. كانت الأسعار قد تحركت وصارت أعلى من قدراته التى كانت تســمح له فى السابق بالشراء والذبح، لكن الجزاريــن فى الكوابيــس لا يعرفون الرحمة لأنهم أحاطــوا به من كل جانب مع من كانوا يطلبون الصدقة الذين كان يعرفهم حق المعرفة مضافا إليهم العشــرات ممن يطلبون أنصبتهم، كانوا يتكاثرون حوله وهو واقف أمامهــم كمجرم حرب تســبب فى قتل المئــات والآلاف من المحرومين والجوعى ظلمــا وعدوانا، وكان يصرخ طالبا منهم الرحمة لأنه ميت ولا تجــوز عليه غير الرحمة ويســتحق الدعاء له بالغفــران لكل ما تقدم من ذنبه ومــا تأخر، لكنهم كانوا يكذّبونه فيستشــهد ببدنه المدفون والذى تحلّــل فعلا وفاحت رائحته التى تزكم الأنوف إلى حد أنها زكمت أنف روحه وهو صاحب البدن، ولعله قام من كابوسه القاسى بمعجزة بسبب

أن زوجته اقتربت منه تتحســس رأســه عمدا أو مصادفــة فقام وجلس علــى نفس الفراش. حكى لها تفاصيل الكابــوس وكيف أنه لم يرحمه لا الجــزارون ولا طلاب الصدقات. عاتبته لأنها طلبت منه أن يتصرف ويشــترى عجلا للذبح فى صباح العيد الذى طلع فجره وبان نور شمسه وذكرته كيف أنه تعلل بضيق ذات اليد ولم تصدقه أبدا لأنها تعرف أنه مستور عن غيره ويستطيع ولو بطلب قرض من الوزارة التى يعمل بها أن يوفى النذر. شــعر بالخجل وبشــرها باحتمال أن يتمكن فى العام التالى من الوفاء بنذره وذكرها بتلك المسابقة التى تمنح من يحل شفرتها جائزة كبرى وقد حل أســئلتها وبعث الحل إلى مبنى التليفزيون آملا فى الفوز لأنه من الممكن أن يكون هو الوحيد الذى حل اللغز واستحق الجائزة.

فى صحوه المؤكد كانت أصوات المصلين تتناهى إليه منظومة ومتتابعة فأمرهــا بإيقاظ العيال حتــى لا تفوتهم صلاة العيد. تطهر وتوضأ ووضع فوق جلباب النوم عباءته وســحب سجادة الصلاة الخاصة ثم خرج بعد أن نبه عليها بمعاودة المحاولة مع العيال ليتبعوه للمســجد ووحيدا مع روحه ســار فى الطريق ساعيا ليلحق له مكانا قبل أن تبدأ الصلاة. ومن بعيد رأى عياله وسط أصحابهم. سمع أسئلة العيال لهم عن عجل العيد فشعر بالحرج طوال الطريق إلى مسكنه. كانت المساحة البراح التى اعتاد مع ســكان العمارة أن يربطوا فيها خراف العيد والعجول خالية إلا من عجل وحيد يلتف حولــه جماعة من الجزارين ومن يطلبون الصدقات. وكان جارهم الشرس يزيحهم بعيدا عنه وعن ذبيحته بالسباب والتقريع. يشير ناحيته بشماتة فيتحولون إليه وكأنهم وجدوا لديه مطلبهم. وبعسر

العســر تخلص منهم ودخل مسكنه. كان يســأل نفسه كيف أن أشرس ســاكن بشهادة الجميع هو الوحيد الذى اشترى على غير العادة ذبيحة مع أنه لم يوزع أى صدقة على كل من وفدوا واستجدوا بأصوات مسموعة كانت تبهجه على ما بدا لكل من شــاف أو سمع. وقال له أحد ســكان العمارة بينما يســتقبله هامســا فى أذنه أن الوحيد الذى ذبح عجلا فى العمــارة يتاجر فى الممنوعات ويكتب تقاريــر عمن يتاجرون فيها فيبدو متعاونا مع أجهزة الأمن، استنكر فأقسم له الآخر بأنه صادق ومتأكد من معلوماته فبدت عليه الدهشــة. لكنه بعد أن خرج الضيف شــعر بدوخة حادة ورغبة فى النوم ممزوجة بخوف من الموت فى كابوس جديد. قاوم بقدر استطاعته وتذكر أنه فى زمن الشباب المندفع قاد مظاهرة ضد نفس الدولة التى يحمل جنســيتها نفس الوفد الــذى أجرى له الجراحة فى القلب. خاف أن يكونوا بالفعل قد زرعوا فى قلبه صماما له عمر محدد يبطل تأثيره بعدها وارتكن على طرف الســرير فشــاف الكابوس المرعب والقاتل فى نفس الوقت ولم يســتجب لهزات أم عياله أبدا لأنه كان قد مات بالفعل.

* * *

غفوة غفلة وبعدها صحوة

كان فـي المنامات يتجلى لى صورة تتشـابه علـى نحو ما مع ملامح جدنـا الكبير، وربما كانـت الثياب المغايرة واللحية تسـهم فى تبديل التقاطيـع المألوفة لهذا الوجه الذى أحببناه وافتقدناه برحيله عن دنيانا قبـل أن أتعرف عليه أكثـر أو أتأكد من تقاطيعه علـى النحو الكافى. كنت فى سـنوات الصبا المبكر محميا باسمه فى دروب الكفر من العيال الكبـار إذا عاندونـى أو خطف أحدهـم لعبة منى، وآباؤهـم وأمهاتهم أو أخوتهـم الكبـار ينبهونهم بأننى حفيده، فيتباعـدون أو يتبدلون إلى أعوان يلاعبوننى بحسـب ما أرغب دونمـا اعتراض وأنا وافد فى زيارة للكفـر فى إجازة نصـف العام أو إجازة الصيـف. وداره البراح تمتلىء بأنفاسـه وعيناه الفاحصتان المتوددتان تتباعدان فصرت أفتقده فى الدار البراح التى كان يسـتقبلنا فيها ببشاشـة وترحاب. يحملنى ويدور بى عدة دورات ثم يقبلنى قبل أن يسـلم علـى أبى ويدعوه للجلوس ليرتاح من عناء السفر، وربما يفاتحه ويطلب منه العودة لنعيش فى داره ودارنا وأبى يسـايره ويعده أن يفكر فى الأمر. أو يتعلل بالسنة الدراسية التى يمكـن أن تضيع لو لم أكمل العام الدراسـى فـى تلك المدينة القريبه من كفرنا. ربماكنت فى التاسعة ومشوارى للكفر مع الأب الساكت يبدو لى عبئا بسبب سكوته طوال الطريق مترددا عن البوح بما يتخفى بداخله من

أحزان. كان الوقت يمضى وهو يتأملنى بينما نركب القطار فرحان لأننى سألتقى بالجد. ربما تردد كثيرا وهو يبوح لى أننا لن نلتقى بالجد هذه المرة لأنه سافر لبلاد الحجاز ليصبح حاجا حقيقيا. وعندما دخلنا الدار سألت جدرانها عنه فباحت لى بأنه رحل. والحزن المخيم على الوجوه يزرع القلق. كانت أياما ثقيلة. وعبارات يتبادلونها مقتضبة وخافتة. لم يكن هناك غير أصوات المشايخ يرتلون القرآن تباعا ويخرجون صامتين ليفسحوا مدخل الدار لغيرهم ليجلسوا ويرتلوا الآيات. سمعت عبارات الرحمة المتكررة تقال وكأنها اعتذارت ممرورة عن خطأ ارتكبوه جميعا - فأحسست أنه لن يعود قبل أن يبوح لى ابن عم أكبر أنه مات فأبكانى وبكى وندمت على الأيام التى عشناها بعيدا عنه كلما سمعت أحد أعمامى يقول أنه سافر رحلة حج وطالت وسوف تطول أكثر لتصبح أكذوبة مكشوفة تشعرنى بالحزن على من مات. أتماسك مانعا نفسى من تكذيبهم لأفرغ ما كان مخزونا فى القلب المحزون ربما بحزن أكبر من حزنهم وأوشك أن أفاتح أبى عاتبا عليه أو لائما لأنه لم يخبرنى بما جرى لجدى ونحن فى المدينة. لكننى لم أفعل وما عرفت أن أستعيده أو أستعيد أيامه التى كنت أقضيها بجواره وأحتمى به وأنا بالقرب منه. أحتمى بظله وأغتفر له ما قيل عنه بإنه اعتاد لأسباب غير معروفة لهم أن يدفع أحد عياله وعيال عياله باليد أو القدم ليغطس فى الترعة أيام الفيضانات ولا أحد يعرف لماذا كانت دفعاته للعيال فى أيام الفيضان والنيل يجود بسخاء على الغيطان. قالوا إنه كان يدفع الصبى

دفعا قبل أن يكتمل عوده ويصير شابا. يدفعه فى أيام الفيضان بالتتابع قبل اكتمال مواســم الفيضان ويجلس ليتفرج باسما على أى واحد منهم بحياد هادئ. وربما يقف ليتأمل نتيجة الدفعة بحساباته، وغالبا ما كان يعــاود الجلوس مطمئنا وهو يعتب على نفســه بعد أن يتأكد أن قدرات الحفيــد بعد الدفعة ســتتخطى المخاطر فى الحــالات التى يغالب فيها الصبى أمواج الترعة ترمح لكنه يدعوه أن يواصل. يقولون فى جلســات السمر أنه كان يقيس سرعة الصبى وسرعة مياه النهر فى تلك التوقيتات وكيف يجبر الصبى على عبور الترعة للشاطئ الآخر. ولأن تلك النتائج كلهــا كانت لصالح من دفعهم خلســة ليعبروا عائديــن كما يأمرهم وهم يســبحون ناحية الشــاطئ الذى نزلوا منه. فيبتسم هو و ينادى الواحد منهــم ليجلــس إلى جواره لأنه أفلح فى الســباحة رغم شــدة الفيضان، يومها تأكدت أننى تعلمت السباحة بشكل أفضل مما كنت أفعل بحمام نــادى طنطا الرياضــى وقد كنت أصغر أحفاده الكثــار الذين يتوه فيهم ويتشــكى لى بينما يجلسنى إلى جواره دائما حول طبلية العشاء المزحومة بالوجبــات الدسمة وهو يتأملنا. يتأكد مــن اكتمالنا رجالا وصبية حول طبلية والنسوة والبنات حول طبلية مجاورة، وقطع اللحم أو الطيور التى ســلقوها وحمروها فاحت رائحتها ليكون راضيا فيكافئ من طبخت وهو يقطعها واللحم الساخن يفوح برائحة الدخان بينما يوزع الأنصبة بسخاء علينــا جميعا مطالبا من يرى أن نصيبــه أقل أن يطالب بالمزيد. كانت أنصبة الصغار والكبار تكفيهم دائما وكنت أشــعر أنه يختار لى ما أرتاح

لطعمه أو شكله ويضيف قطعة منها كلما ابتلعت من نصيبى قطعة وأشعر بالشبع. لكنه يمد يده بقطعة من نوع أحبه ويحايلنى لأبتلعها من أجل خاطره فأبتلعها وأنا أشـعر بمزيد من الامتلاء. كنا كبارا وصغارا نتبادل النظرات كى نجتهد لنكمل ما أعطاه لنا لنشبع لأنه لايسمح لمن يشاركه الطعـام أن يقوم قبل أن يتأكد من شـبعه. ومبتسـما بشـاربه الكثيف ذو الشـعر الأبيض الذى يغطى فمه؛ شـعر أبيض وناعم وكثيف يغطى الفم بالشـفتين لكنه لا يعوقه عن الكلام أو تمرير الطعام. يأكل مستمتعا بـكل ما يدخله فى فمه وهو يتابعنا بنظراته الفاحصة المتأملة. وكنا بعد شـعورنا بالشـبع نجلس فى براح المندرة لنسمع حكاياته التى لا تنتهى أبـدا. حكايات عن الجن السـاكن تحت الأرض وعـن الأجداد الكبار الذين لم نسـمع عنهم أو نراهم وهو يحدثنا ويرسم بالكلمات صورا لبشر لم نلتق بهم. لكننا نستشـعر أنفاسـهم وهم يحيطوننا وربما يباركوننا. ومزهوا بسـلالته وكونه امتدادا لأجداد يحق لنا أن نزهو بهم ونتباهى، ننظر إلى الرسـوم المعلقة فى براويز لرجال بشوارب وطرابيش أو عمامات فوق الرؤوس فأتأكد أنهم من نفس السلالة التى نعتز بها. وأبى فى مثل تلك السـهرات يوصيه راجيا أن يكـف عن عادته القديمة بدفع الصبية فـى مياه الترعة ليجبرهم على تعلم السـباحة أيام الفيضان. يضيف له وهو ينظر ناحيتى أن بشائر الفيضان هلت. فيهز رأسه معبرا عن إعجابه بملامحى التى تتشابه مع ملامحه فى مثل عمرى. ويربت على ظهرى متمتمـا بكلمات ثم يهز رأسـه باسمـا ويقول إنه لـن يدخلنى التجربة

إلا لو تأكد أننى سأجتازها. وبدا لى أنه كان عارفا بأننى سأجتازها. قبلها بساعات كان أبى يعاود طلبه مثلما يفعل فى كل مرة. فأكد أنه لن يفعلها معى ليطمئن قلب أبى، كان الجد يناوشنى بارتياح وربما اطمأن بينه وبين نفسه بمقدرتى على عبور الترعة حتى لو دفعنى بكل قوته سأعبر عائما بعزم يتشابه مع عزمه، وقد حكى بعض من شافوه وهو يدفعنى بعنف كيف أننى لم أصرخ وكأننى كنت أعرف مسبقا وأجهز نفسى للدفعة دون صرخة. وكيف أننى عبرت واتجهت ناحيته فى مشوار الرجوع دون إشارة منه مثلما كان يفعل مع أولاد أولاده الأكبر منى. وأبى يسمع وعيناه تتحركان ناحيته وناحيتى بالتتابع والعيون تحاول أن تستوضح بحثا عن تفسير لحادث عارض مر أمامهم مثله كثيرا بتفاصيل مغايرة، وكان الرجل يهز رأسه ولا يبدو عليه أنه سيرد عليهم. وعندما سألونى لم أعرف كيف أجيبهم رغم تشجيعهم. ومتحيرا وربما متخوفا من ذلك الاحتجاج غير المنطوق أو حتى العتاب على ما جرى منه. وكيف كان أى واحد منهم لا يتجاسر على معاتبته أو لومه وهو يرانى أمامه مرتاح التقاطيع دون علامات للخوف، وكانت حكاية الجد مع كل أحفاده حسب ما قالوا بداية لتعليم الصغار السباحة دون قلق أو خوف من ماء النهر فى أيام الفيضان. كانوا يجلسون على عادتهم فى المندرة الكبيرة يتأملون ملامحه وهو يحكى لهم حكايات قديمة عن عروس النيل التى كان الأجداد القدامى يقدمونها للنهر ليحافظ على مساره الصاعد ليروى الزراعات، وكيف أنها لم تكن فى

أى مــرة تغرق فــى مياه النهر، بل كان يحتويهــا ويحميها وينقلها الى قصــر يخصه في واحدة من المرتفعات التى تمــده بالماء الذى يتولى نقله إلينــا كأمانة يتعهــد بتوصيلها إلينا كى نعيش فى أمن ودونما أى قلق، وعــروس النيل التى أحدثكم عنها تعيش مع زميلاتها من عرائس النيل وحولهــن الخادمات يقضين مطالبهن دون مراجعة أو تأجيل. وأعمامى يتســمعون وتبدو على تقاطيع الوجوه علامات الشك دون أن يجرؤ أيهم أن ينطقهــا أو يترجمها لكلمات، ربما يهز الجد دماغه وهو يراهم على هذا النحو، ســاكتين لا يعلق أيهم بأى كلام على ما قاله الجد. أحيانا يأمرهــم بالعودة إلى بيوتهم والرقاد فى أحضان زوجاتهم أو مع عيالهم، فيتبادلــون النظــرات ويوافقون على ترك المكان تلبيــة لما أمرهم به قبل أن ينفعل ويطردهم طردا لو تكاســلوا، ويقهقه وهو يودعهم بما يرضيهم ويجبر بخواطرهم فيتضاحكون ويتحركون، ويتجاســرون وهم يتباعدون علــى تفســير ما قاله الرجل وما يلزم أن يتعلمــوه منه ومن حكاياته عن النيل وعروس النيل، وربما يتســاءل أحدهم فى جلســة أخرى إن كان النيل يرضى باستبدال تلك العروس الجميلة بصبى يمكن أن يكبر ويصير عريســا جميلا ينافسه فى الســيطرة على مياه النهر بعد بضع سنوات، فيبتســم ويربــت على كتفى داعيا لى أن أكبر وأكــون واعيا وناجحا فى حياتــى فيبدلون الموضوع ويتقبلون ما يقوله عــن ذلك الزمن الذى فات منهم ولم يتعايشــوا معه فيه بكل ما يحتويه من بســاطة وراحة وأحلام مشــروعة وحياة يتعامل الكل فيها بكثير من مراعاة الأصول. وكيف أن

تفريعــة النيل وهى تطل على رأس غيطــه الكبير تحدثه وتطهره عندما ينزل إليها قبل الفجر بساعة وكيف كان يحسب قوة أمواج تلك التفريعة ويعرف مســارها لأنها كانت تبوح له بالأســرار. وكثيرة هى الحكايات التى كان يرويها لهم فى تلك الجلســات التى تجمعهم ، يتســمعون ثم يرحلون ويتحاورون ويتندرون، دون أن يجرؤ أيهم على مقاطعته أو حتى إبداء التشكك فى مصداقية ما قاله.

❋ ❋ ❋

وكان أبى يحدثنى عن الحلم بتحقيق الســعادة وزيادة الوعى بالدنيا ومــا يتبدل فيها قبــل وبعد رحيل الجد. وكيــف أن أمنياته لا تتحقق إلا بعد صراعات مع خصوم لنا لم نكن ننتبه لوجودهم وهم يدورون حولنا على نحو متواصل. وأنه يلزم أن ننتبه لنصون أنفسنا من مخاطر الزمان ونحن نعيش فى الغربة، وأنه لولا «بركات الســيد البدوى» التى حلت علينــا واحتوتنا لنعيش فى تلك المدينة وما نحتاجه من مطالب الحياة. وكيف أن تربية الجيل الجديد الذى ســوف يأتى ويشاركنا المعيشة فى تلــك المدينة «يذكرنى بأننى صرت شــابا» وأنه يتمنــى أن يرانى زوجا لبنت الحلال لأكون أبا لعيال يراهم ويفرح بهم. ولأنه لو حقق حلمه أن يصير جدا لعيال من خلفتى، فإن الدنيا لن تتســع لتحتويه. وكيف أنه ســوف يحاول تربيتهم وتوعيتهم بضرورة حماية النهر ممن يطمعون فى قطع مســاراته. وكيف أنه يصعد إلينا ويفى بوعده فى مواعيده كل عام ولا يخالفهــا لنروى أرضنا من ماء النهر الــذى يعطينا من مجراه الآتى من البعيــد البعيد. ويواصل فأسمع ما كان يبوح به جدى بينى وبينه،

وكيف أن النيل يشبه العريس الشاب الذى يمشى فى حفل الزفاف مزهوا بقوته وواعيا بمساره. وأن تفريعة النيل التى يطل عليها الجد عند رأس غيطه سوف تبوح بأننى عبرت وعدت لأشارك الجد جلسته. وأنه صار مألوفا أن يرانى أسبح ويسمع أننى فزت فى مسابقة للسباحة والغطس فى حمام السباحة فى نادى طنطا الرياضى فيبدو فرحان وهو يتذكر جدى، تتبدل ملامحه علامة السعى للخروج من مأزق يستشعره ويحاول أن يداريه، وكيف أنه بدّل ترتيباته لمستقبل الأيام. وموهوما أننى أصدقه عندما يقول ليقطع الصمت «أن بركات السيد البدوى حلت علينا واحتوتنا كغرباء نسعى من أجل الستر» فأهز دماغى متظاهرا بالموافقة على رأيه، وخيال الكفر يتبدى لى متباعدا يصعب الوصول إليه رغم ثقتى بأن المسألة لاتزيد عن ربع الساعة لو ركبت القطار متوجها نحو الكفر الساكن فى الذاكرة لايبرحها أبدا، ومن كثرة التفكير والأيام تمضى صار القلق عادة. وخيال الجد الراحل عند رأس الغيط دوما يصدر الأوامر ويتابع ما تبدل من مساحات مزروعة وممدودة. خضرة تامة على الأرض تتحول فى مواسم الزراعات المحفوظة عندهم. وأزمنة نرى فيها سمرة تحفرها الفئوس وأسنان المحراث قبل رمى الحبوب، وأبى الذى كان يبدو ضيفا مستمتعا لما كانوا يقولونه له عن الجد الراحل. يفسرون له الدوافع التى لم تفاجئه، حتى الدفعه القوية التى أصابتنى وهو يدفعنى لتفريعة النهر بحساباته. يؤكدون له «أنها كانت اختبارا متكررا لكل الصبية فى مثل عمرى. وأنه لم يكن يقصد إغراقى ليحرمه منى كما فسر الأمر أيامها لمن شاركوه السهرات من أبناء أعمامه الكثار

كلما فتحوا له السيرة فيريحونه ويوافقونه على ظنونه التى زرعوها فى عقله دون أن يدرى.

❋ ❋ ❋

كان الجلوس على شط الترعة الكائنة عند رأس غيطه عادة يعرفونها، وربما كنت أعرف الحكاية التى يتحدثون عنها لتخوف أبى من عدم قدرتى على عبور الترعة لو تعرضت لدفعة من دفعات الجد العفى، وأنه قلل زياراته حتى انتهى الأجل المحتوم للرجل، ينفى أبى أنه كان غاضبا من المرحوم، ولم يكن متخوفا علىّ أكثر من مخاوفهم على عيالهم، ويضيف مثلا أنه شافنى أعوم فى نفس الترعة مع أبناء الأعمام الكثار، وقبلها رآنى أسبح فى حمام سباحة نادى طنطا، يوضح أبى أنه كان يرانى أصغر أبناء العم وأنه كان ينظر لى ويقول لجدى إننى «آخر الفرحة» وصحيح أنه لم يكن يبوح لهم بما يقصده بشكل مباشر فى وجودى، كان الكبار يتهامسون مع الكبار، ربما استنكارا لخوف أبى المبالغ فيه، ولأن الجد فى نهاية الأمر كان يستطيع أن ينقذ أى غريق سواء كان غريبا أو قريبا، بل إن وجوده عند رأس غيطه بالقرب من شط الترعة كان يزود جرأة صبيان العائلة، وأن الكل كان يرمى نفسه أو يرمى صاحبه واثقا أنه لو تعرض للغرق فإن الجد حسبما كانوا يؤكدون يتطوع لإنقاذ من يشرف على الغرق غريبا أو قريبا، لكن أبى كان يعترض ويوضح أكثر أن قلقه من احتمالات غرقى لم يكن بسبب الدفعة القوية بيد الجد العفية أو حتى بالقدم لم يكن يقلقه، وإن الأمر كان يتعلق بالتوقيت الذى كان يختاره أيام الفيضان، يضيف أن النيل

غشـــيم ويمكن أن يدفع أمامه أى شيء حتى ولو كان جبلا. وكيف أنه كان يندهــش لاختياره هذا التوقيت ليفعــل فعلته مع كل صبية العائلة فى مثل ســـنى وفى أيام الفيضان الكاســح كأن الرجــل كان بينه وبين النيل ثأرا، لأنه اختطف صبيا فى العاشـــرة من عمره قالوا إنه كان ابن عمه. لكنه يتذكره فى كل مرة ويعانده ويرمى له واحدا من أولاد أولاده أو أولاد أولاد العم. يتســـمعون باندهاش وكأنه يقول تلك الحكاية التى سمعوهـــا مرارا وتكرارا وتظاهروا بعدم تصديقها، يهزون الرؤوس مجاملة له ويشكرونه لأنه ذكرهم بما نسيته عقولهم. ووافقوه لأنه كان يتمنى أن يكــف الجد عن تلك الدفعات التى عملها مع عياله وعيال عياله وعيال عيالهم تباعا.

ولأننى كنت أصغرهم فقد كان يشـــير لى لأجلس بجواره بينما يقشـــر عقلة القصب ويمدها ناحيتى مقشـــرة. فأمضغها على مهل وأشـــعر أنها أحلى عقلة قصب وأنا أمصها متمهلا فيبتسم لى راضيا وفرحان بوجودى إلى جواره. أســـتعيد زمانه وأســـتمتع بصحبته فى منامات. ويتبدى لى فى المنام أننى أوشـــكت أن أمســـك بداية الخيط. وهو يربت على كتفى لينبهنى أن أكون صاحيا لروحى. أتنهد وربما أتقلب فى فراشى مرحبا بصحوتى على نحو غامض. ويتجلى لى وأنا أتأمل صورته الســـاكنة فى نفـــس الحيز أمامى. ربمـــا تنقلنى عيناى لأرى صـــورة أبى فى بروازها القديـــم وعلى وجهه علامات ارتياح وزهـــو لأننى أعجبت جدى القديم فى المنام. ولعلها خلافات كثيرة كانت قد نشـــأت بسبب دفعات الجد لعياله وعيال عياله. وســـواء دفعهم باليد أو بالقـــدم ليواجهوا الاختبار

ويتعرضوا للخطر. فقد كنت أحاوره فى الصحو بعدما تهت فى الغفوات وارتعبت فى الكوابيس أمام الجد أو واحدا يشبهه إلى حد التطابق، أشير لصورة أبى الذى أراه مطرقا على استحياء فى وجود الجد القديم، وأمسك ببداية الخيط النحيلة. وربما يطاوعنى عقلى فى الصحو لتهدأ روحى، لكن عندما تعاودنى علامات بداية جديدة لغفوة أجهز نفسى وأسترخى راضيا وأنا أتمنى أن يتواصل المنام الناعم ويتجدد بترتيباته التى عشتها معهما، وأرانى مسترخيا فى صحوى المتغافل أستعيد تلك الرؤى متلاحقة لسنوات فاتت. ولم أكن مطمئنا لإمكانياتى فى استعادتها لولا رؤيتى لتلك المنامات العابرة التى كانت تحاصرنى وأراها تتوالى متتابعة، تستعرض وتعيد للذاكرة أحداثا لم استعدها بترتيباتها كما عشتها برغبتى أو غصبا عنى. وخلال السنوات التى قاربت أن تكمل نصف القرن وهى ترتب نفسها أو ترتبها ذاكرتى وتصحو على مهل وقد تكشفت أبعادها التى كنت أحسبها معطوبة. ربما لأنها لم تكن تتواصل بعد الصحو بتعنت لولا الرؤى المتأخرة الممدودة التى تستعرض الكامن والمخبوء ليتجلى ويعلن وجوده فى صحوى كجزء من نسيج عتيق لكنه لم يهترئ، ولأنه صار يتجلى خطفا على نحو يتوافق مع ما قلته لنفسى عن نفسى كى أصبح متوافقا مع أقوال الأهل والأصدقاء، وقد انشغلوا بما قلته وتابعوا ما تبدل فى حياتهم وحياتى صعودا وهبوطا، قبولا ورفضا، أو سعيا وتكاسلا، يتشابه مع تراخ عن غير قصد يضعنا أمام أنفسنا على عكس ما كنا نتمنى أو نتخيل، وكالبنيان التائه غير المسنود على هوية لها جذورها الضاربة فى نخاع

تلك الأرض التى لم تكن تتبدى إلا بعد مناهدات واستسلامات، وتصل لحد التبلد المفتعل والتظاهر أن الدنيا بخير رغم الفرار، وعدم القدرة على التفسير أو المواجهة، ثم مرحلة جديدة تتأكد فيها الحقائق لنعرف الفوارق ما بين الكابوس والمنام الدموى والوردى، ثم ماذا عن التوحد الجديد ثم السعى الذى أوشكنا أن نستند عليه لكى نزرع فى الزوايا حلما وتوافقا لا يشطرنا نصفا فاعلا ونصفا متخاذلا، فيتعايشان رغم التناقض والخلافات دون أن يفكر أيهما فى إزاحة الآخر وهما يتعايشان على نحو مغاير، ولعل من كانوا يحيطوننى بملامحهم لمحوا ما كان يتبدى أحلاما لا تندثر فى الصحو الذى صار يميل إلى التوافق والمشاركة المأمونة، وهو يستعيد ملامح الأجداد التى تتبدى ركائز نتساند عليها ونطمئن لوجودها فى كل صحو.

***

دعنى أطالبك الآن وقد بحت لك بمواجعى أن تنصفنى وتتوافق معى، تبرر لى ذلك الطموح الذى تجدد لدى، فصاروا يحدثوننى لا أقول من مربع الحسد بل أقول أنها تولدت من منطقة المباركة، وربما تسللت لمشاعرى بعد زمن التخاذل، ومثل تلك المخاوف التى تعايشت معها مرافقا لبعض الكسل متقبلا بعض التبلد المعجون بالخزى وأنا الحالم بالطلوع، وحالات الصحو من الغفلة التى تنبهنا لوجودها فى الخلايا الساكنة فى أبداننا بعد أن سعينا ناحيتها لسنوات طالت وطالت، وتمددت وكتمت على أجهزتنا العصبية التى بدت لنا شاكية لأبداننا وغير متشكية لمن يتابعون حركتنا عن بعد ويتدبرون أمورهم، وتبادلنا

الأســئلة عن مصائرنا لو تجاســرنا وسألناهم أو تشكينا لهم دونما حذر، وبأياديهم الأسلحة وكيماويات التدمير الشامل، وربما دار الحوار المنطوق بيننا أو اتفقنا بعد أن ســألنا بعضنا البعض، ماذا لو ســايرناهم وواصلنا خطواتنا بنفس الإيقاعات الكســلانة، وتلك التى ترضيهم وتطمئنهم بأن غفلتنا طالت خلافا لكل توقعاتهم، ولقد بدا لهم أننى غســلت نفســى وغســلت ثيابى مــن تراب الأرض الطينية، وتباعــدت عنها مثلما قالوا عنــك وهــم يتندرون على مخاوفهم التى لم يكــن لها أى مبررات، لكن الأرض الطينية فى دروب الكفر كانت تسكننى ، وصحيح أننى تباعدت عنها غصبا عنى ولم أرجع لها متعجلا على أى نحو قلت لنفسى أيامها «فى التأنى الســلامة» ورغــم أننى تبينت البدايات التــى قادتنى لتلك الدهاليز المفتوحة على الفراغ المفتوح وتحملت صهدها، وكانت الشــمس المألوفة فى الكفر تدعونا لنتخفف من ثيابنا لو ســنحت لنا أى فرصة، وفــى بلادنــا كنا فى طفولتنا وصدر شــبابنا نتخفف مــن تلك الثياب، ولا يتبقى لنا إلا ســاتر العورات المكشــوفة بلا خجــل، ومثلما كان أى هبــوط وأى صعود مرصودا بعيون الأحبة والخصوم بدرجات متفاوتة فى حياة البشــرية، وقد يســفر عنه محصلة نهائية ترجح كفة من الكفتين الســاكنتين ويكون الناتــج خطوات إلى الأمام أو خطــوات إلى الخلف، والثمرة المســتحقة مقابل الهمــة التى بذلناها، وهى الشــوكة الجارحة مقابل التخاذل، مسائل متشابكة لا يحسمها الكائن الحى وحده، يصعد أو يهبط بها متوافقا مع نفســه، راضيا فى بعض الأحيان عما صار إليه حاله، ومعترضا أو ســاخطا فتأتى الرياح أحيانا بما لا تشتهى السفن.

مثل ما قالوا لنا فى بواكير الحياة فأتحول إلى كائن ساكت متأمل يختزن اختياراته لتتواصل الحياة ويبقى مستمسـكا ببقائه، ودون أن يحسـبوا حسابا لمعايير الإرادة البشرية لأى كائن حى. ليتعرفوا على دوره الفاعل أو دوره السـلبى فى الكثير من الحالات وكيف يقاوم رغبة الخلاص من الحيـاة هروبا أو انتحارا. وبخلاف حالات تدافع الكيان الحى لسـكة الخلاص والانسـحاب عجزا يتعادل مع فـرار من مواجهة أعداء الوطن بميادين القتال وهو فرار بكل الحسـابات. ولا يهـم بعد ذلك ما يقال لحفظ ماء الوجه بعده. وعلى استحياء أحيانا أو بتبجح يصل لحد ادعاء المهزوم أنه انتصر. فيحق لنا أن نستشـهد بما كتبوه فى بعض صفحات التاريخ المحسـوب. ومن وجهات النظر التى تخصهم. ولا يهمهم مثلا أن نقبلهـا أو ننتقدها باعتبارنـا ممن قرءوا التاريخ المكتوب من وجهات نظر متباينة تتفاوت فيها اجتهادات من تولوا الكتابة بين صدق وتزييف مكشـوف وهـو يصور القائد المهـزوم بطلا. فاز على نحو غير مسـبوق ليدخل به تاريخ البشـرية المكتوب والحافل بمثل هذه الأكاذيب. وربما لأن المنتصر لا يعنيه ما يشـاع عنـه وقد تحققت أغراضه الكبرى. فماذا يضير لو بعبع مهزوم أمامه بادعاءات يفتعلها. وهو يروى تاريخه لقبيلته بتواضـع مفتعل. فيتظاهر البعض بتصديقه ليرتاحوا من دخول سـاحة الجدل تصديقا أو تكذيبا. وقد أتجاسـر قبل أن أبوح لنفسـى بالحقائق كما عاينتها وعايشـتها. وأنا نفر فى جيش قبيلته التى عبرت الحدود ثم تراجع مسـنودا على خطوات تأكدت فيها جسارته بشهادة المشايخ، وصراخ الخصوم الراغبين فى تأكيد نصرهم. وكإضافة يتمسـك بها على

النحــو الذى يؤكد لــه إن نصره كان نصرا خالصا، ولأنه أخرج نفســه من مربع الأقاويل وشــهادات مكتوبة ومدموغة ومبصومة، تشــهد بأنه حــاز نصف نصر ونصــف هزيمة، وهى فى النهايــة حكايات متداخلة تتوّه العقول التى ترغب فى الفهم، ولكى يســتعيد الجسارة الساكنة فى الجينــات الوراثية المؤكدة، وكم أكدوا له أنه الوريث الشــرعى لســلالة قال خصومها إنها انقرضت وتلاشــت، وما تبقى منها غير بضعة نقوش قديمــة وبنايــات وعواميد وتماثيل حجرية لأنصــاف آلهة، وكل ما هو مســطور وباق شــبه كتابات غير محلولة الرموز، ونقوش بارزة تكسرت زواياهــا وصارت غير قابلة لفك أى لغز يدعيه من يدعيه، وكم أشــاعوا أن مــن قال إنه فهم دلالات تلك اللغة وفســرها عابر ســبيل، ولم يكن وريثا شرعيا لمن دفنتهم الأزمنة تحت رماد الأرض، لكنه كان بارعا فى تفســير الدلالات التى رآها ، ولعله لم يهتم أو يتراجع بعد أن تيقن من مصداقية تفســيراته، ولأن من كانوا خصوما للحياة كذبوه على عادتهم، ثم انزاحوا متباعدين عنه ليرتبوا أقاويلهم التى سربوها عن ذلك التداخل والتشــابه الواضح ما بين تلك الكشــوف وطلاســم عتيقة، سطروها فى السابق وادعوا أنها تتشابه أو تتطابق مع الطلاسم التى سجلوها خطوطا ملوية ومقلوبة، وعرفوا بها الغرباء وبرعوا فى تفسير الحالة بأقنعة حياد زائــف، وكما غضبوا ممن اعترضوا وقالوا أن هناك أدلة معكوســة تنفى تلــك الدعاوى، بل تطاولوا عليهــم وأكدوا أن الطوفــان أزاح أجدادهم ودفنهــم تحت مياه البحار والمحيطات وأنكروا عودة الأموات بعد آلاف الســنين ثم تحولوا إلى فزاعــة لتخويف الأحياء من تلك الســلالة التى

حافظت على ميراثها وحنطت أبدان من ماتوا منها وأسكنوهم فى البراح المحفور فى سـراديب تلك الجبال ليتواروا عـن الخصوم الذين تطوعوا لـتأكيد فنائهم. فلم يصدقهم العقلاء. وتلونوا وأشاعوا أن لهم نصيبا فى تلك الأبدان لأنها تخص أولاد عمومتهم العقلاء.

***

اعتـدت رؤيتهـم فى تلك الغفـوات بتفاصيل ملامحهـم المؤكدة فى منامات تتماهـى ثم تتوه، ويتأكد لى أننى دخلت صحوة مباغتة جديدة تنضاف إلى صحوات مكتملة تتخلل غفواتى الممدودة لتنقطع الرؤيا وتتوه منـى تفاصيل الملامح التى تخصنى. لعلنى تمكنت من اسـتعادتها فى الـرؤى المطوطة المتتابعة وهى تقتحم خيالاتـى فى بدايات كل صحوة لوجـوه أخـرى وملامح تفزعنى أحيانا. ربما لأنهـا تتخفى فى الثياب المسلوبة أو محبوكة التصنيع إلى حد التشابه المتطابق لكنها لا تتمكن من رسـم روح التقاطيع والملامح. ولأنها كيانات مدسوسة علينا بما لا يقبل الشـك فقد كانت تأتى لتفزعنى. فأقوم من رقدتى لأتخفف من حالات المطاردة المتواصلة من وجوه خصوم لا أملك حتى أن أتجاهلهم أو أشـيح عنهم وهم يترصدون خطواتى بلا كسل أو ملل. حتى فى الحالات التى يبرعون فيها مثلا فتوشـك الوجوه أن تشـابه إلى حـد أن التفرقة بينها يكـون عسـيرا فى الصحو أحيانا فمـا بالكم بها فى منامات كابوسـية مدسوسـة علينا فى الصحو والرقاد، والاستنساخ المتراكم يتشكل ملامح مشـتركة وطالعة من نفس الجـذور وهى تعاود الظهـور لأفرح بعودتها بعد أزمنة تباعدها وقد طالت ثم تحولت لمنامات تتجسـد كيانات حية

تتحاور أو تنطق أو تحكى وتقول لنا شـيئا عن الجذور المشـتركة معى. وأنا أواصل تحريض الذاكرة لكى تتوافق وترصد ما شـافته خلايا العقل الباطـن فى منامـات متقاطعة وممدودة. فتشـكو ذاكرتى من زحام تلك الـرؤى المتعارضة. أحايلها وأعدها بأننى سـأحوطها بكل الرعاية، ثم أصدقها فتتجسـد ذاكرتى أمامى كيانا حيا يواجهنى متأملا ساخرا من أمنياتى المشـروعة للوصول إلى توظيف المسـتحيلات المرسومة بخيالاتى فـى كيانـات حية تعى دورها وأقـوم برصد ما كنـت أراه فى مناماتى متجسـدا بلا هوية محددة وبملامح متقاربة. فأقف عند حافة اليأس من إمكانياتى كى أجعلها أكثر طاعة. تقهقه وتتمنع وتتباعد أكثر. وأتعايش مـع الفراغ. فراغ الذاكـرة من كل إمكانياتها للربط بين ملامح بشـرية تاهت منى فى الزحام وإن كنت أعرف هويتها وأستشعرها. وأوشك أن أعتب عليها لأنها تفر منى ولا تفكر فى الرجوع مستنكرة أنها ما زالت تخطر على البال. فأستشـعر اليتم وأحاول معاندا نفسـى أن أستعيدها واعدا أن أحدد هويتها وأكون جاهزا للحوار معها مسـتنكرا فراراها بعد رؤيتها بشـكل متكرر. وفـى غفوات تتلوها منامات محايدة تناوشـنى وتتضاحـك معى وتلفلفنى وتعايرنـى بضعف ذاكرتى فأنكر وأعتب على تلك الملامح متوددا لها ومؤكدا أننا ننتمى لجذور واحدة وأننى أتماسك وأقاومهـم ولا أضعـف إلى الحد الذى يبرر أن يتحـول حوارى مع تلك الملامح إلى معايرة سـاخرة. ولولا العزيمة والعناد الواثق من قدرته حتى ولو كان فاقـدا ذاكرته فى الصحو واعيا ومطمئنا لوجودها فى المنامات.

وربما استشــعرت خلال حوارى مع ذاكرتـــى بأننى فى كل الحالات لم أخســـر شيئا، لأن الكنز الساكن فى خلايا الوعى واللاوعى لم يهجرنى حتى لو تشـــكل على نحو آخر، أفرح ثم أنفى ضعفى. ومؤكدا لذاكرتى التى كنت أتحايل عليها وأرتجيها أن تسعفنى وتكف عن معايرتى وهى ذاكرتى. أقول لنفســـى أن كل ما جرى هو تكاسل الذاكرة التى شاخت واعتادت الاستســـلام للنســـيان الكامل قبل أن يتم الصحو ثم يكتمل بعد تلك الغفوات الخاطفة.

* * *

انكسار الخواطر

لو شـئت الصراحة فسـوف أعترف لك الآن بأننـى رجل لم يعرف قدراتـه الفعليـة أو إمكانياته الحقيقية فى أى مرحلة من مراحل عمره. رجـل لم يعرف حدوده ليقف عندها بحيث لا يتراجع أو يتقدم إلا فى الوقت المناسب. ولعلنى قررت بعد أن استوعبت الدرس الصعب أو بعد فـوات الأوان أن أكـف عن السـرحان فى أحلام اليقظة التى تسـلمنى للأمنيـات الوردية مخافة أن أتطوح فى آفاقهـا الرحبة التى لا تحدها حدود ثم أسقط على أم رأسى على صخرة الواقع الخشن بكل تفاصيله. أكابـد المزيد من الشـعور بالإخفاق والانكسـار. ذلك أنـه كان قد تأكد لى بعد كل المكابدات المجانية أننى رجل يليق به أن يعيش فى الهامش وبشكل أبدى. رجل لا يحق له حتى أن يحلم مجرد حلم فى أن يتطوع صديـق طيب مثلـك بتطييب خاطره ولو ببضعة كلمات لاتكلفه شـيئا. لكنه لأنك صديقى القديم فسوف أبوح لك بتلك المصادفات التى حبستنى فى شـبه دائرة محكمة لا أستشـعر فيها إمكانيات التحقق كما أبتغى. أخرج من دائرة فأدخل دائرة أخرى. سلسـلة من الدوائر المتلاحمة التى لاتتيح للبنى آدم أى قدرة على الانفلات. وعندما يتأكد عجزى أستسلم لتفسير الأمر على أنه «قسمة ونصيب» كما كانوا يقولون فى سوق المواشى الذى شـارك المرحوم والدى فى تجارتهـا زمنا فانكتب علىّ أن أتعرف

على تفاصيل السوق ومساراته وسراديبه طفلا وصبيا وشابا. «قسمة ونصيب» كما كنت أسمعها فى الحالات التى يرتفع فيها شأن البعض على حساب البعض الآخر، أو يتخبطى خلالها الأصاغر كل الأكابر. لم تكن هناك فى سوق المواشى موانع أو قواعد يلزم مراعاتها أكثر من ترديد بعض الكلمات الطنانة عن الشرف والصدق والحمد والشكر للخالق على الستر والصحة والرزق الحلال. «قسمة ونصيب» يقولونها فى أشد حالات العسر والخسران بغير مخرج ولا أمل فى التعويض مثلما حدث مع والدى رحمه المولى جل شأنه فى مثواه الأخير فقدْ فقدَ كل شيء فى أواخر سنوات عمره. المال والصحة ووفاء الأهل والصحاب والشركاء. كنت أنا فى مطالع الشباب مثل شعلة الأحلام الوردية لكن «القسمة والنصيب» تسببا فى كسر خاطرى.

«البداية كانت طفلا يحلم ويتمنى أن تتاح له الفرصة كى يطير، يطير ويحلق فى فراغ الكون دون أن يوقف مساره أحد. يرقب الدنيا من البعيد البعيد وبمحض اختياره يعود أو يسرح ليحط فى دنيا غير هذه الدنيا ويتعامل مع ناس أو كائنات غير هؤلاء الناس أو تلك الكائنات».

كنت قد تربيت إلى جوار سوق المواشى وكنت بينى وبين نفسى أحتج على سلوكيات ناسه بداية بالأب الذى لم يتورع عن ارتكاب بعض المؤامرات الصغيرة أو الكبيرة ليرتفع نجمه وتتسع تجارته ويذيع صيته. لكنهم انتقموا منه أو قل خانوه فى نهاية المطاف، أنزلوه أو قل أسقطوه بعنف إلى أسفل سافلين بعد أن جردوه من كل ما كان يتباهى به أو يحوزه. كسروه بضراوة وقسوة فلم تقم له بعدها قائمة، لكنه برر

ســقوطه بنفس العبارة المكررة «قسمة ونصيب» وأضاف إليها تفسيرا من عنده ليريح نفسه أو يضحك علينا وعلى نفسه «الدنيا انقلب ميزانها .. واطيها ركب فوق عاليها وتاهت فيها الأصول» صدقته وتأســيت لحاله دون أن أجرؤ على البوح له بأننى كنت أتوقع له هذه الســقطة ولا أجرؤ علــى تحذيره منها. وهــل كان من الممكن أن أحــذره وأنا ابنه الصبى أو الشــاب الطالع من صلبه؟ كانت الدنيا قد دانت له وطابت وزهزهت من حوله فانسطل بفعلها وعايشها بنصف وعى، تماما مثلما كان يجلس وســط أتباعه حول راكية النار الملتهبــة يرصونها له ببراعة فوق أحجار المعســل المغموســة بأنقى وأثمن عبوات الحشــيش من خيره وحر ماله. كنت بالقطع أخافه وأنتظر مشــوار الرجوع إلى دارنا بالقرب من مدخل الســوق وقد انقســم هو على نفســه نصف واع ونصف مدرك. فأتجاسر وأســرّ له ببعــض مخاوفى عليه فيدمدم بأنصاف ردود لا تشــفى القلب الحــيران ولا تبعث الطمأنينــة فى العقل القلقــان، لا أخفى عليك أنه كان فى بعض الأحيان يفاجئنى ويبهرنى بكلام أشــبه بكلام الحكماء. وبعيدا عن تلك الروايات المتواترة حول ســيرة النبى محمد أو قصة أبى زيــد الهلالى ســلامة التى كان يحفظها عن ظهر قلــب ويدندن بها فى ســاعات النشــوة رغم عجزه عن القراءة والكتابة، وبعيدا أيضا عن تلك الأمثــال التى كان يقولها بالمقاس فى أى المواقف فتبدو مثل ثوب محكم التفصيل لابسة على الحالة دون زيادة أو نقصان، كنت أقول لنفسى أنه نصــف نبى أو أنه عارف بكل ما يــدور حوله من ملاعيب لكنه يتغابى بإرادتــه واختياره، وقد كان هــو الذى أفهمنى فى لحظة صفو نادرة أن

لكل شيء في هذه الدنيا حدودا لايحق للبنى آدم أن يتخطاها حتى فى أحلام يقظته. وأفادنى بأنه يحق لى عندما أكبر مثلا أن أدخل مدرسة الطيران بالواسطة بدلا من السرحان العبيط فى أحلام اليقظة، وأكد لى أننى لو دخلتها فسوف أتعلم الطيران على أصوله، وأننى بالقطع سوف أتسلم طائرة حقيقة ويسمح لى بأن أحلق بها فى مجالنا الجوى أو فى أى مجال جوى آخر شريطة أن أحصل على الإذن أو الموافقة من أصحاب المجال الجوى الذى أنوى التحليق فيه بطائرتى. ورغم كل التفصيلات التى أفادنى بها فقد كنت أطمع فى المزيد، ورغم عدم ترحيبى من داخلى بفكرة الطيران فى حدود محددة أو مجال مسموح بعيدا عن كل المجالات غير المسموحة، إلا أنه زود طموحى ورسخ رغبتى فى الطيران فى مستقبل الأيام. ذاكرت تنفيذا لوصاياه وتفوقت بأكثر مما كان يتمنى لى أو يتوقع منى، لكن النجاح بتفوق لم يكن يكفى، كانت هناك إجراءات يلزم اتباعها وقد تطوع من ناحيته بعمل كل الإجراءات ليتحقق ما كنت أحسبه حلما ورديا، صرت على الباب أنتظر، لكن «القسمة والنصيب» أو ماجرى لى لم يكن بسبب الكشف الطبى الذى خوفونى منه فى البداية، بل إنه كان هناك فى تاريخى موقف لم أكن أحسبه سرا خطيرا مخفيا بحساباتى على الأقل وراء إبعادى، صحيح أنهم ادعوا أن نظرى ضعيف بأكثر مما تسمح به لوائحهم، وبأن قلبى خفيف خفيف بأقل مما يليق بطالب يتعلم الطيران، وأضافوا أيضا أن جهازى العصبى فلتان ومشدود وغير مأمون العواقب، لكن ما لم أكن أعتبره سرا خطيرا مخفيا وانكشف كان وراء إبعادى من كشف المقبولين، وكان الرجل الذى وعدنا

بدخــولى عــالم الطيران هو الذى فضحهم. كان الرجل قد تسـلم المقابل يدا بيد من أبى فى حضورى على ســبيل الرشــوة. لكنه عندما فشــل فى إدخالى لم يخف علينا شــيئا مما سمعــه أو رآه فى لجنة التصفيات الأخيرة، أيامها كانت الرشــوة منتشرة ومألوفة ومحددة بالأرقام. وكان الرجــل الذى أغضبه ما جرى له ولى يقســم ويؤكد بكل الأيمانات أننى كنت سليما من كل النواحى الصحية وأننى كنت أملك نظرا حادا وقلبا صالحا يعمل بكفاءة وجهازا عصبيا منســجما لا تشوبه شائبة. وأضاف أنــه عمل كل مــا كان يلزم وأكثر لإدخالى لكنــه لم يفلح. أكد لأبى أن حجة الكشــف الطبى باطلة، وبدا لى ولأبــى أن الرجل كان صادقا فى كل ما قاله. وعندما أخرج المظروف الملفوف ليرده لأبى أشــفقت عليه. كان قد همس بأن المظروف يحتوى على المبلغ الذى أخذه من أبى على ســبيل الرشــوة، لكن أبى أزاح بيمينه تلك اليد الممدودة فى حســم رغم إلحــاح الرجل الــذى كان متحيّرا فى أمر نفســه. فوضع المظروف فوق حافــة المكتب بينما يواصل حكاية كل ما دار فى لجنة القبول. صحيح أنه أخذ المظروف غصبا عنه كما كان باديا عليه بينما كان يغادر المكان. لكنه أخذه تنفيذا لرغبة أبى التى كان فيها شيء من الوعيد المخفى الذى لابد أنه أخافه من تاجر كبير ومحســوب حســابه فى سوق المواشى وله علاقات بأكابر البلد يمكن مثلا أن يتسبب له فى فضيحة تضيع مستقبله ككاتب فى مدرســة الطيران. ولأن أبى اعتاد فى سوق المواشى أن يدفع قبل أن يقبض مطمئنا بأنه ســوف يكون كســبانا فى كل الصفقات وكل النهايات. وبغض النظر عن سمســار صغــير كذاب يلعب على الحبلين

أو صبى من صبيانه يسـعى للقفز خطوة إلى الأمام فى سوق المواشى على حسـابه. فماذا تكون قيمة الرشوة ليستعيدها من رجل خدمه من حيث لا يدرى عندما كشـف له أكاذيب الأكابر الذين كانوا قد وعدوه وأكدوا وعودهم ؟ المهم أنه اكتشف يومها أننى شخص غير مرغوب فيه عند من يتولون أمور الطـيران والتحليق فى الفراغ عاليا عاليا لأتمكن من مراقبة العالم من فوق، كانت لديهم تلك الأسباب الواهية التى بدت له عارضة وهامشـية ولا تسوغ لهم ذبح حلم عمرى أو إزاحتى بعيدا عن مدرستهم مكسور الخاطر لأول مرة فى حياتى.

باح الرجل لأبى بأننى على المسـتوى السياسـى غير مأمون الجانب فتذكـرت على وجـه الخصوص جماعة الخطابة التـى كنت عضوا فيها والتى كان يشـرف عليها الأستاذ التوابتى وكيف أنه كان يباهى بى قبل أن يقدمنـى لأصعد علـى المنبر الصغير الخاص بجماعتـه. أصعد مزهوا بنفسـى ثم أخطب فى الحاضرين عن أى شىء يخص الوطن. كنت أبدو لهـم متحمسـا ومخلصا فى دورى كخطيب مفوه وفارس كلمة لايشـق له غبار، وكانوا يصفقون فأحييهم وأنزل بينما يصعد الأستاذ التوابتى مكانى ليمتدحنى ويؤكد لهم متباهيا أنه اكتشـفنى،كان فى الفصل يقرأ للتلاميذ ما يتيسـر من موضوعات الانشـاء التى أكتبها. ويطلق على اسم مصطفى كامل بدلا من مصطفى فاضل الذى هو اسمى الحقيقى. كنت أقول لنفسى وماذا يهم يا ولد ؟ كامل أو فاضل؟ المهم هو الاستعداد لخدمة الوطن.

«كانـت جماعة الخطابة إذن هى سـرك المفضـوح ؟ الخطابة يعنى سياسـة. والسياسـة خطوات تخطوها على مهل عكس اتجاه الحكومة

عميلة الإنجليز. وأنت بنفسك مشيت فى اتجاه الحارة السد التى توصل إلى منطقة المستبعدين فاحتمل».

بدا لى أن أبى كان يدمدم بمثل هذا الكلام ونحن فى مشوار الرجوع من «المحششة» بينما أنا نصف غائب ونصف واع لأنه سمح لى لأول مرة فى حياتى بأن أشاركهم الأنفاس. كأنما كان يسعى لتغييبى أو لتنبيهى. تغييبى عما فات وانقضى وتنبيهى بما هو آت. وأنا من ناحيتى راجعت نفسى بينى وبين نفسى دون أن أفقد ثقتى فى قدراتى. قلت لروحى أن الأحوال سوف تتعدّل إذا عدّلت أنا مسارى. وراجعت كل الاختيارات وتوصلت لنتيجة مؤداها أن الزعامة أفضل من التسكع فى الفراغ طائرا بلا هدف. وتذكرت كيف كنت فى المدرسة الثانوية زعيما بالفعل بسبب الخطابة. كنت عندما أقف فى طابور الصباح وأهتف ولو بصوت خافت:

- يسقط الاستعمار
- يسقط الاستعمار
- الجلاء بالدماء
- الجلاء بالدماء

يرددون الهتاف ورائى ويسارعون بحملى على الأعناق. نخرج من باب المدرسة الذى ينفتح على مصراعيه وندور فى جنبات المدينة. وبرغم وجود الزعامات فى المدارس الأخرى إلا أننى كنت أشعر أننى أكثرهم تأثيرا وقدرة على صياغة الهتافات التى تليق بما كان يجرى حولنا. كنت أتعرض لمضايقات الشرطة وضربات الهراوات والعصى. لكننى كنت أفلح فى الفرار منهم. يطاردنى العساكر بتوجيهات الضباط

لكنهم يعجزون عن اللحاق بى. ومرة وحيدة أمسكونى واقتادونى إلى مركز الشرطة مع العشرات من زملائى تلامذة المدارس وزعمائهم. ضربونا بالعصى الغليظة فاتهمتهم بالهتافات بأنهم عملاء للاحتلال الإنجليزى فردد التلاميذ كلماتى رغم وجود العساكر والضباط وآثار الخبطات على الأصداغ والأبدان. تحول المركز إلى صرخات تتوجع واتهامات تتعالى وتنفذ إلى الشارع. هل كان دخول الناس مبنى المركز فى تلك الظهيرة الشتوية مصادفة أو أنه كان استجابة للهتافات الوطنية والتحريضات التى كنت أصوغها عبارات موزونة ومسجوعة فيرددها الناس داخل وخارج مبنى المركز فى ذلك النهار؟ كان أبى قد وصل. كتب مثل كل الآباء تعهدا بحسن تربيتى ورعايتى ومتابعتى. وفى الركن أوصاه المأمور بأن يحافظ على حياتى بأن أكف عن تأدية دور زعيم المدرسة أو تقمص شخصية الزعيم مصطفى كامل الذى أسرّ له بأنه مات مسموما بمؤامرة إنجليزية غير معلنة. وذكره بأن الإنجليز مازالوا يحكمون البلاد من وراء القصر والحكومات المتتابعة. كان الرعب المرسوم على ملامح أبى يخيفنى لأنه صدق كل ما سمعه. وعبثا حاولت فى مشوار الرجوع أن أوضح له أن المأمور يخيفنا ويزرع فى قلوبنا الرعب لنكف عن المظاهرات. لكن أبى كان يسمع ولا يعلق. ولعله بعد تلك الواقعة زوّد جرعات المخدر التى كان يدخنها. ولعله بدأ مشوار الانحدار نازلا ومتنازلا عن مكانته التى كان قد بلغها بالجهد والحيلة والاحتيال أحيانا.

قلت لنفسى بينى وبين نفسى: أدخل كلية الحقوق لأكون زعيما حقيقيا. لكن أبى اعترض بشدة. كان يتخيلنى طبيبا بشريا أو حتى بيطريا. كان من الحتم أن تنتصر إرادة الأقوى. وكان أبى هو الأقوى

لأنه أخذ أوراقى وقدمها بنفســه إلى كليــة الطب، ومن ناحيتى لم أكن أهتم بتلك الدراســة، كأننى كنت أعانده وأعاند الحكومة وأعاند نفسى أيضا. قضيت ثلاث ســنوات بطولها وعرضها دون أن أتعلم شــيئا فى مدرســة الطب غير أعراض الزكام والحمى الروماتيزمية ونسب المصابين بالبلهارســيا فى مصر المحروســة، وربما بســبب كراهيتــى لمنظر الدم لم أحضــر واحدة من محاضرات التشــريح أو أتعلم تطهير الجروح حتى ولو كانت سطحية، فشلت ببراعة أو بعناد بغل استرالى حتى فصلونى. ســكن الحزن قلبــه ولم يوجه لى عبارة لوم أو يفكــر فى توبيخى لأننى خيبت أمله وأنا ابنه الوحيد. لكنه فى واحدة من تلك الأمســيات بينما كنا راجعين من تلك الجلســة المعتادة حــول الدخان الأزرق باح لى بأن خســارته زادت عــن كل توقعاته، لم أدخل معه فــى التفاصيل، كنت مشغولا بنفسى وما أزال أحلم بكلية الحقوق متصورا أنها السبيل الوحيد لأكون زعيما. ومادمت قد فشــلت فى الطيران ولم أقدر على النجاح فى الطب فلابد أنه سوف يوافق مكرها على دخولى كلية الحقوق، لكن أبى لم يتح لى فرصة إكراهه على عمل شــىء لا يرضيه، كانت كل الأشــياء التى نملكها تتطاير مثل كل الأحلام الوردية، كنت أراه منكسرا وأرانى منكســرا مثله دون أن أتمكن من مســاعدته أو مســاعدة نفسى. وكانت أحلام الزعامة التى لازمتنى فى ســنوات الصبا ومطالع الشباب تنطفئ حولى على مهل. أوشــك أن أســخر منها قائلا لنفســى بينى وبين نفسى «قســمة ونصيــب» بمثل مــا كان يقول هو فى حــالات الوعى أو نصف الغياب.

دون مقدمـات أو بمقدمـات مخفية رقد أبى فـى فراش المرض متألما ومتوجعا قبل أن يصل إلى زمن الغياب شـبه الكامل عن الوعى. يطول رقاده وينقضى عامين وأنا أشـقى فى أحط الأعمال داخل سـوق المواشى راضيـا بإهانـات صغار الصبية القدامى وقد تحولـوا إلى أنصاف تجار. كنت أحتمل سخرياتهم من ابن المدارس الذى خاب أو الولد الذى افترى على نعمة ربه ففصلوه من مدرسة الطب أو ذلك الولد الذى كان يتحدث فـى صباه عـن طائرة يملكها ويلـف بها أركان الدنيـا. وكنت أحتمل مضايقاتهم لأننى لم أكن أعرف سـكة أخرى للاسـترزاق خارج سـوق المواشـى. وكان من الحتم أن أتكسب أى قروش مهما كانت قليلة لأدبر لنفسـى وله اللقمة وبعض أصناف العـلاج المطلوب لحالته لأنه كان قد أفلس بالفعل ونسى الناس فى سوق المواشى هيبته وتاريخه معهم. أقول لنفسى بينى وبين نفسى شيئا من كلامه القديم «الدنيا انقلب ميزانها. واطيها ركب فوق عاليها ... وتاهت فيها الأصول» وأقول لنفسى مفسرا أن ما جرى لنا «قسـمة ونصيب» كان يطيب لى أن أتأمل وجوه أنصاف السماسرة وأنصاف التجار بينما يتفحصوننى بشماتة. يذكرهم أى صبى جديد باسـم أبى مكمـلا لاسمى فيترحموا عليه حيـا قبل أن يموت. أغتاظ ولا أملك القدرة على الدفاع عنه. كان على أن أتحامل كى أرعاه ولا أتوجـع. كان يزيدنى ألما وانكسـارا أن أعايـش بعد منتصف الليل إفاقته نصف إفاقة. يحادثنى ويوصينى بأن أتعلم الحسـاب والمحاسبة إلى جانب الطب الذى انتهيت من دراسـته بحسـب ما كان يتصور كى أحمـى ثروته مـن لصوصية الكتبة المأجورين. ينبهنـى ويوصينى بعدم

الاهتمام بالسياسـة فى مستقبل أيامى ويذكرنى وهو نصف غائب بأننى سوف أرث تجارته الرائجة فى سوق المواشى وأنه يلزم أن أحافظ عليها وأنميها لأكون جديرا بحمل اسمه ومسئولا أمام المولى جل شأنه عن تربية إخوتى الصغار مع أولادى الذين هم أحفاده بعد أن ينقضى أجله، يوشك أن ينفلت عيارى وأواجهه بالحقيقة لأريحه من الأوهام التى سكنت فى خياله بأنه مازال يملك نفس المال أو نفس الاسم الرنان فى سوق المواشى أو أن له خلفة أخرى غيرى أو أحفاد أنجبتهم فى غفلة من أمر نفسى. لكننـى كنت أتراجع خوفـا عليه من صدمة تعجل بموته إذا اكتشـف حقيقـة ما صار إليـه حالنا. وهل كان يحق لى أن أكون صادقا معه وهو على فراش الموت بعد أن بارت تجارته وتراكمت ديونه قبل أن يشهروا إفلاسه وهو فى كامل غيبوبته بينما فشلت أنا فى إكمال تعليمى ؟ كنت أجاريه وأسايره وأفعل ما كان يبدو لى لائقا برجل مكسور الخاطر خلّف للدنيا رجلا مكسـور الخاطر ليعيش فى هامش الهامش باختياره متأملا ومتباعدا عن كل المطامح

***

لعبة فى المنام

كان الأمر يبدو فى البداية لعبة، لعبة فرار وإمساك ، والبارع البارع هو من يفر وينجح فى الزوغان، لم يكن الأمر يخلو من دعابة تستحق الضحك وتبعث نوعا من النشوة إن كان للنجاح فى الفرار نشوة، ولابد أن هناك أنواعا من البهجة أو النشوة الناتجة عن النجاح فى الفرار برغم أن عائد من يهرب معدوم، لكنه على أى حال نوع من النجاح يؤكد شكلا من أشكال القدرة.

كان هو كما بدا لى فى « المنام / الكابوس» أشبه بممثل فاشل لم يتحقق بالتمثيل على خشبة مسرح أو على شاشة تلفاز أو سينما ولا حتى على موجة إرسال إذاعى، ممثل لم يعترف بموهبته أحد ولا صدق هو نفسه بأنه ينتمى لفن التمثيل بأى صلة، كان يؤدى دوره دون قصد أو على نحو طبيعى كما يقولون، لعلهم لو اكتشفوه كان يحق لهم التباهى بالعثور على النجم المستحيل، لكنه لم يكن من الممكن بكل الحسابات أن يتحول إلى ممثل محترف تشيد بقدراته الأفواه والأقلام، ربما لأنه قبل كل شىء سوف يرفض حفظ أى نص لأى كاتب مهما علا شأنه لأنه يكره فكرة الكتابة ويكره الكتّاب، وسوف يرفض طاعة أى مخرج أو يلتزم بالحضور فى مواعيد التصوير أو التسجيل، يرى نفسه فوق كل هؤلاء، ليتأكد الجميع أنه خصم لا يستهان به ويفعل كل أفاعيله بحسب إرادته الحرة

وباختياره المطلق. ينطق بالكلمات على النحو الذى اختاره لنفسه ويقول العبارات التى يصوغها عقله لينطق بها لسانه. يتحرك فى الفراغ، كل الفــراغ الذى أوهم نفســه بأنه امتلكه ليتحكم فــى كل ميادينه ومبانيه المطلة على شــوارعه وحواريه وأزقته، كنت فى منامى لســوء حظى قد شهدت المصير التعس الذى انتهى إليه رجل مسالم ومعدوم الحيلة وقع عليه اختياره ليلاعبه لعبة المّساكة أو العســكر والحرامية. كان المصير شنقا أو خنقا أو ما شابه ذلك.

كان حلمــا خاطفا انقطع إرســاله بحركة بدنى للرقــاد على جانبى الأيسر، وسوف أحدثكم بالقطع عن الأضرار التى أصابتنى بسبب رقادى بغير قصد على جانبى الأيسر، ذلك أننى كنت أغطس فى سراديب النوم بعد تناول المهدئ وأستسلم فوق الفراش ساعة أو ساعتين فى أقل تقدير مهــدود الكيان مفكــوك الأوصال راقدا على ظهرى. يســرح دماغى فى ردود أفعال عيالى وزوجتى إذا فوجئوا بموتى بعد فترة قصيرة أو طويلة. وكثــيرا ما كنت أحس بهــا وهى تدخل الحجرة التى أرقد فيها وتخطو ناحيتــى بحذر بينما أنا غاطس فى بحر النوم فأســتيقظ أو أكون مازلت أتقلب قلقا أو موشــكا علــى النوم فى تلك اللحظــة الفاصلة بين الرقاد وغفلــة النــوم. أنتفض غالبا على الرغم منى فتبســمل هى. ربما تربت على كتفى أو صدرى وكأنها تبعث لى رســالة طمأنة أحتاج إليها لأعاود الدخول فى ســراديب الغفلة. كنت أفســر الأمر على أنه نوع من توقع الموت – موتى – من ناحيتها. عشــرات المرات وربما مئات المرات كان يحدث نفس الشــىء وبنفس تفاصيله تقريبا. فإذا قمت منتفضا سألتنى

عـن حالتـى وما أحس به. فى السـابق كنت أتمكن مـن الكلام وربما الوصـف لبعض تفاصيل ما كنت قد رأيته فـى منامى أو غفلتى وأنقطع بدخولها. لكننى فى العامين الأخيرين صرت لا أرغب أو أستطيع الكلام أو الوصـف دون سـابق ترتيب منـى أو تدبير وعلى نحـو بطىء وغير ملحوظ. حدث أننى صرت لا أرغب فى الكلام أو الوصف. وفى أحسن الأحوال كنت أكتفى بالإشارة مثل أى أبكم مدرب وبارع فى لغة الإشارة أطلـب منها أن تكف عن طرح الأسـئلة. تجلس إلى جوارى وتتأملنى. ومن داخلى كنت أغضب وأقول لنفسى مثلا أنه من الممكن أن تكون هى قد لاحظت علامات الموت على ملامحى أو بدنى وأنها بالقطع جلست لتشهد الفصل الأخير من لعبة الحياة والموت . أغضب وربما أكتم غضبى أو أعـبر عنه بزفرة احتجاج. ربما لو أسـعفتنى القدرة أقوم وأخرج من المكان وهى فى أعقابى أو جالسـة فى مكانها تتأملنى بلوم أو دهشـة. وربما أبقى فى مكانى فترة ثم أعاود الرقاد فتترك هى الغرفة وتسـحب وراءها الباب. أتذكر أن أباها مات فى طفولتها المبكرة جدا فتولت أمها تربيتها. انقطعت لها وما كفت عن الحسـرة عليه لأنه مات فوق فراشه دون أن تصدر عنه صرخة أو نداء أو صوت غير مألوف. وأنه لم يتركها وحدهـا وحيدة بل ترك طفلته وحيدة أيضا دون أخ أو أخت أو حتى عم أو خال يعتمد عليه أو يساعد فى رعايتها لو تصادف أن ماتت أمها أيضا فيكتمل يتمها. أسـتنتج أن فجيعة مثل هذه فى حياة الأم كانت محورا أساسـيا فى حكاياتها للبنت عن مصاعب الحياة بعد رحيله عنهما فى صمت مطلق. وأقول لنفسى أيضا إن الخوف من الموت عند زوجتى كان

ميراثا لا تملك منه فكاكا. وربما بسبب ذلك تحولت أنا إلى موضوع للتأمل والتوقع من غير قصد. لكننى برغم كل تلك التصورات كنت أستشعر وجعا يصعب الاحتجاج عليه ويناسبه الكتمان رغم كونه موجعا وبشراسة. وربما لا يخفف منه كل طقوس الحنو والتعاطف الصادقة بسبب تلك المخاوف المرسومة فوق تقاطيعها.

وفى المنام رأيته مرة أخرى وقد اختارنى خصما له بعد أن تسبب فى قيامى مفزوعا بسبب رؤية المصير التعس الذى انتهى إليه من كان قد اختاره قبلى ليكون خصما له. كان لا بد أن أتوخى الحذر. أنام على جانبى الأيمن. لكن الأرق ناوشنى قبل أن أتوه فى الغفلة. لكننى رأيته يختارنى خصما يطيب له مطاردته. كأنما كان يختبر ذكائى ومقدرتى على مراوغته والفرار منه. ولعله كان على نحو غامض يعدنى بمصير مبهج إذا أفلحت ونجحت فى الهرب منه ولو مرة واحدة. أكد لكل من كانوا يشهدون اللعبة أنه يحترم الذكاء والأذكياء. صحيح أننى فى الصحو لم أدّع الذكاء الفائق. لكننى كنت أعرف أننى أنتمى إلى فصيلة الأذكياء فى المنام. ربما كنت واهما أو كنت محقا لكننى كنت أرانى على هذا النحو من فصيلة الأذكياء. وربما بسبب ذلك لم أتخوف من لعبة الفرار من الحصار. ربما بدا لى الأمر هيّنا لأن النوم يحرر الإنسان من بعض مخاوفه التى تلازمه فى صحوه.

كان على أن أرمح فى طول المدينة وعرضها عارفا أنه سوف يطاردنى بكافة الحيل والألاعيب. كنت قد تخلصت من إحساسى بالخوف أو الخطر وكأننى شاب يافع مازلت. أفر وأفر وهو فى أعقابى. تغرينى

علـــى مواصلة الرمح نشـــوة الانفلات من كل الفخاخ المنصوبة والشـــراك المحفـــورة التى أتخطاها. هل كانت تتبـــدّى لى فى الأفق القريب بوادر حيـــاة هادئة أو مصـــير مبهج لو أنه أوفى بوعده ؟ ربما. لكنه كان وهما فى منام جعلنى أطرح على نفسى سؤالا لا يحتاج إلى ذكاء خارق للإجابة عليه. كنت أسمع صوت نفسى وأنا أكرره مستنكرا :

– يا عبيط... متى أوفى الخصوم بوعودهم ؟

وأرد على نفسى بنفسى:

– يا عبيط .. ومتى توقع العقلاء أن يمنحهم الخصوم مكافآت لأنهم بارعون ؟.

لكننـــى كنت أفر ويحاصرنى، أفـــر ويحاصرنى وأعاود الفرار. وكان هـــو قد أعلن نجاحى فـــى كل الاختبارات. كانت عيون الناس تتابعنى بإعجـــاب وأصواتهم تهنئنى على النجـــاح فى الخلاص من كل الفخاخ ووسائل الحصار. ومن بين الناس اقترب منى ثلاثة من الشباب المتحمس. شـــدوا على كفى ثـــم ربتوا على ظهرى وصدرى وجعلوا يمســـحون على رؤوســـهم وأبدانهم بكفوفهم التى لمســـتنى. كأننى صرت وليا من أولياء الله. تذكرت الحســـين بن على والســـيد البدوى فأدهشنى الأمر. كانت هنـــاك عربة «حنطور» فســـيحة ومكشـــوفة تجرها أربعـــة خيول عربية بيضـــاء ويزينها الورود التى تفوح روائحهـــا العـطرة فتســـحر الألبـــاب. ســـاعدونى بكل الأدب وأركبونى. أحاطونى بينما تعبر العربة الشوارع والميادين حيث كانت آلاف العيون تتابعنى بكل الإعجاب بينما الكفوف تصفق والحناجر تهتف فتأخذنى نشـــوة النصر وألوح لهم واقفا ومتخليا

بإرادتـــى عن مقعدى الوثير. يهلل قلبـــى مع الناس فرحا لأننا تخلصنا من فترة الحصار والفرار. وقبل أن ينتهى موكب المنصور الذى كنته بدا لى أن عجوزا عاجزا ومحنيا على نفسه يشير بعصا يتوكأ عليها ناحيتى يســتمهلنى. كانت له لحية بيضاء كثيفة وطويلة تتطلب حسن التقدير والرعاية. أمرتهم بشـــهامة المنتصر أو أثرت عليهم بالوقوف ليركب إلى جوارى، لكنه بعد أن ركب رأيت فيه وجه الخصم العنيد بكل تقاطيعه وقد انفرد عوده وانخلعت لحيته المســتعارة ثم اتســعت أشــداقه بينما يضحك بشــماتة لأنه أســقطنى فى أضيق فخاخه وتأكــد من انتصاره. لحظتها تأملت وجوه الشبان الثلاثة الذين يحيطوننى فاكتشفت علامات الشبه الشديد بينهم وبينه. كان فخا محكما ومفاجئا لم أعمل حسابه. وكان السقوط مدويا بحسابات الجميع. لكننى لم أستسلم. لعلنى طلبت العــدل المســتحيل فى المنام أو حاولت توســيط واحد مــن أولاد الرجل ليوضح له أننى بكل الحسابات كنت قد أفلتّ من الحصار وأننى فررت بشــرف وراوغت بشرف فأجّلت اللحاق بى أكثر مما كان الكل يتوقع. كان الشــاب يتسمع كلماتى ويزنها بميزانه فتبدو له موزونة. تبدو على وجهه علامات تعاطف وموافقة على أفكارى. يتركنى محاصرا بالشابين الآخرين ويقترب من الرجل هامسا فى أذنه بكلمات لابد أنها كانت فى صالحى لكن الرجل يرفض بعناد بغل مواصلة الاســتماع فيرجع الشاب ليســتنطقنى لأقول لــه المزيد مدافعا فيبدو متعاطفا أكثر ويشــير إلىّ بأن ارتاح. يتركنى فى حراســة شقيقيه ويذهب إلى الرجل من جديد. يقول بصوت مســموع أنه متعاطف مع حالتى وأن شــقيقيه اللذين يحاصرانى

متعاطفـــان معى مثله. يضيف بصوت مســموع أن قوانين العدل الدولية والأساليب الديمقراطية الحقيقية فى صفى من كافة الوجوه. لكن الرجل كان ينظر ناحيتى بغل وكراهية عمياء. ربما قال شيئا يفيد أننى أوشكت على قلب موازين الدنيا لأننى حصلت بالحيلة أو الســحر على تعاطف أولاده فيوبخهــم ويتهمهــم بالغباء. يطرقون خجــلا ويؤكدون التزامهم بالطاعة لــه دون أن يتخلوا عن الدفاع عنى. يدفعوننى دفعا لأن أدافع عن نفســى فى مواجهته. أفعل بعد تردد وأجاهد أن أوضح له أن الأمر كان خدعة من خارج قوانين لعبته هو بحســب ما اتفقنا عليه فيســخر منــى ويقــول إن الصراع على البقاء ليســت له قوانــين وإن الغفلة هى الغفلــة والغباء هو الغباء بدرجــات متفاوتة. يعترف ببعض ذكائى لكنه يقلــل مــن قيمته لأننى فى نهايــة اللعبة وقعت فــى واحد من فخاخه المنصوبة حولى. يدافــع بعض الغرباء عنى بأصوات خافتة ويدافع عنى عياله بأصوات أكثر خفوتا لكنه لا يســتجيب. يطالبنى البعض بمعاودة المحاولة معه لأفلت من عقابه البشــع. ينصحنى أكبر عياله بأن أتودد إليه أو أداهنه وأعترف له بالنصر قائلا إن مثل هذه الأشياء تجعله أكثر ميلا للمســامحة والعفو. أتردد أولا ثم أبدأ فى شــرح حالتى معه مؤكدا أننــى لم أكن أضعه فــى خانة الخصوم أبدا. أوضح له أن الأمر كان من بدايته لعبة فيذكرنى بأننى رأيت بعينى رأسى المصير التعس الذى وصل إليه الرجل الطيب الذى اتخذه خصما قبلى. يســخر منى أكثر فيتبدى لى جلفا دمويا بلا مشاعر. أحاول مرة أخرى فلا يحيد عن موقفه المعادى لى. أشــعر أننى نزلت ونزلت ثم تنازلت بأكثر من حســاباتى عن نفسى

استجابة لنصائح عياله الذين أعلنوا كامل الولاء له والاستعداد لتنفيذ كل أوامره فى نهاية الأمر بغض النظر عن بعض الخلافات الشكلية التى تسبك اللعبة فى عيون الناس الودعاء.

يتبدل حالى فألعنه. أبصق على ملامحه فيمسح آثار البصقة بكل التواضع الزائف. يشهد الجميع على عصبيتى وانفلات لسانى بالشتائم اللاذعة. لا أتوقف رغم حصارى عن الصراخ وأقول للجميع إننى لو كنت فى شبابى القادر ما تمكن منى أبدا وأنه لو صادفنى فى تلك الفترة لكسرت أنفه أو أضلاعه أو رقبته لأننى كنت فى شبابى بطلا للرماية والسباحة وركوب الخيل. وكان من الممكن أن أصرعه فى أى ميدان. أكشف له ولهم صدرى لأريهم آثار جراحة القلب المفتوح التى أجريتها. يتعجب الحاضرون من قدرتى على تخطى كل المصاعب التى صادفتها برغم ما وصلت إليه حالتى، لكن الرجل كان يبدو بليدا وشامتا إلى أبعد حد. عيناه تنضحان كراهية ووعيدا قبل أن يشرح لهم ولى بنبراته الباردة مصيرى التعس الذى ينتظرنى. تنقلب موازين الأشياء فيهللون استحسانا بينما يشرح لهم الأسلوب المبتكر الذى سوف يتم بمقتضاه خنقى أو شنقى. كنت أنا قد تماديت وحدى فى التهوين من قيمته وقيمة الزمن الذى أتاح له الفرصة ليتحكم فى مصيرى على هذا النحو بسبب أننى تجاسرت ولاعبته. وكنت أدعوهم لمقاومته وكشف مفاسده بأجرأ العبارات فكان يشهدهم على انفلاتى ويستنكرون كلماتى. أتحول إلى شهيد على الحافة بين الموت والحياة. شهيد مات بالفعل لأنه أفرغ بالكلمات شحنات الغضب والاحتجاج لكنه لن يفلت من تنفيذ العقاب

فـــى البدن لإزهاق الروح إن كانت ما زالت هناك روح تحتمل مزيدا من الإزهاق. لعلنى كنت قد سألت الرب الخالق ليبعث لناس الأرض بعضَ عدله بمثل ما يبعث إليهم الأرزاق والأعمار والمصائر واثقا من اســتجابته للدعاء الصادق الذى ينطق به لسان العبد المؤمن.

كان الرجـــل هناك ما يـــزال وقد أحاطنى أولاده بـــكل القيود وبكل الغلظـــة التى لم أكن أتوقعها منهم. لكنهم على ما بدا لى لم يشـــفوا كل غليلـــه فراح يســـخر من رقة مشـــاعرهم ونعومة أناملهم. كنت مأســـورا وقـــد انفض الناس مـــن حولى ولم يعد هناك فى الميـــدان غيرنا. أنا وهو والقيود وعياله الثلاثة الذين صاروا يتشابهون معه فى كل شىء، الملامح وقسوة القلوب والرغبة فى الانتقام بكل ضراوة. هل كادت اللعبة تنتهى لصالحه بخنقى أو شـــنقى على نحو غير مسبوق ؟ ربما استشعرت ذلك لفترة خاطفة، لكننى بحركة عفوية أفلت نفســـى من الكابوس فأعادنى الصحو المباغت للحياة وحررنى.

***

السعار

ربما لم أكره في حياتي كلبا من كلاب هذه الدنيا الواسعة قدر كراهيتي لذلك الكلب الذي فاجأني بنباحه الشرس وأنا أقف أمام بيت أبي، أنادي وأنا أشعر بالخوف فيوشك صوتي أن يتوه ولا يظهر له أي أثر بسبب ذلك النباح المتواصل العنيد الذي يطردني من المكان طردا، كانت زوجتي تقف ورائي وهي تحمل الولد النائم على صدرها، تتباعد إلى الوراء فأتباعد مثلها كلما قفز الكلب المربوط بسلسلة ناحيتنا وهو ينبح، ينبح ويقفز فنتراجع إلى الوراء خطوة جديدة أو خطوتين مخافة أن تنفك السلسلة أو تنقطع، ولولا الخجل لاستدرت راجعا من حيث جئنا لأتخلص وتتخلص هي أيضا من الخوف، ربما لم يطل الوقت بالفعل لكنه بدا لي أنه كان كافيا لإفساد فرحتي المأمولة وأنا أفاجيء أبي بزيارته ومعي زوجتي وطفلي لأول مرة وقد تكبدنا مشقة السفر الطويل والسفر القصير في سخونة الشمس. سمعت صوته الآمر من الداخل قبل أن أراه بجلبابه الأبيض وطاقيته البيضاء، والكلب الشرس يستجيب له ويكف عن النباح، يستدير ويهز ذيله ثم يقعي على الأرض بين ساقي أبي الذي يتباعد عنه ويتجه ناحيتنا، يفتح صدره بحنو ودهشة وفرح فأوشك

أن أنســى فى المسافة بين عتبة البيت وعتبة حجرة المسافرين كل ما فعله الكلب.

***

كنت أشــعر بنوع من الزهو وأنا أشــهد فرحة أبى بالولد الذى كان يحاول أن يخطو بضع خطوات دون مســاعدة. يمشــى فيصفق له أبى ثــم يحمله بكلتــا يديه ويرفعه إلى أعلى، يقذفــه إلى ما فوق ثم يلتقطه والولــد يضحك ويكركر بينما زوجتى تهتز وتلهــث مثلما تفعل قبل أن تنوى الاعتراض على أى شــىء. كان الولد قد فهم اللعبة، يمشى بضع خطوات دون مساعدة من أحد ثم يتلقى المكافأة أحضانا وقبلات وارتفاع إلى أعلــى ثــم التقــاط، وعندما جــاء الكلب ليشــارك لم يفكر أبى فى طرده. وضع الولد فوق ظهر الكلب فضحك وكركر، مد يديه وشــد أذن الكلب فمال الكلب برأســه ولم يعترض، جذب شعره وربما رفسه بقدمه والكلب مستســلم تماما وســاكت فى وداعة. كأنــه كلب آخر غير ذلك الذى أخافنا منذ وقت قصير. كان فى واقع الأمر كلبا بارعا وذكيا يؤدى دوره بإتقــان، ولابد أنه كان من تلك الســلالات النادرة التى يســتعين بها البوليس فى كشــف الجرائم والتى نراها فى الأفلام الأجنبية فنشعر بالرهبة ممزوجة بالانبهار .

***

لتتخلص زوجتى من مخاطر لعب الولد مع الكلب بحساباتها فكرت واســتدعت قطتهــا الوهمية . نونوت عدة مرات فانكمش الولد بســببها

وكف عن الحركة. كان الكلب يرفع أذنيه إلى أعلى منتبها وكأنه يعرف أن المواء زائف رغم براعة التقليد، لكن الولد صدق وارتمى فى حضنها لتحميه من القطة المزعومة. كان قد اعتاد أن يسمع صوت أمه بعد المواء وهى تحادث قطتها الوهمية وتستدرجها أو تؤنبها قبل أن تطردها من المكان بنفس الإيقاع المتكرر :

– تعالى يا قطة. ابتعدى يا قطة، سينام الولد يا قطة، من قال لك إنه يبكى ؟ لابد أنه ابن الجيران الذى يبكى فاذهبى إليه وخربشيه، اخرجى من عندنا يا قطة خرجت القطة ونام الولد وقفلنا الباب ولن ترجع القطة.

وكما يحدث دائما لتنويم الولد لعبت هى نفس الدور بين الدندنة والهدهدة والتخويف حتى يسكت تماما إن كان يبكى أو يفكر فى البكاء أو يبدو لها معترضا على النوم، سكت الولد تماما وكف عن الحركة متناوما قبل النوم الحقيقى لفترة، وكان أبى ينظر إليها وإلى الولد وينتظر النتيجة، وعندما بدا له أن الولد راح فى غفوة أمرها :

– خذى الولد إلى حجرة النوم ونامى إلى جواره حتى يطمئن ويغطس فى النوم وهو فى حضنك .

نظرت هى نحوى فى احتجاج مكتوم قبل أن تحمل الولد بعصبية وتخرج من المكان. قام أبى بهمة وأغلق الباب وراءها ثم سكه بالترباس. واجهنى وهو يومئ ناحية الباب المسكوك هامسا :

– شكلها جميل لكنها لا تناسبك كما كنت أظن .

واصل كلامه بنفس الصوت بعد تردد:

- لا تخلف منها غير هذا الولد .. أمومتها كاذبة.

كـدت أرد عليه مدافعا عنها لكنه واصـل مرة أخرى وقد زاد قناعة بفكرته فارتفع صوته أكثر :

- هل سألت عن أصلها وفصلها ؟ هل تعرف فصيلة دمها ؟ ثم كيف أخفيت عنى أخبار زواجك طوال هذه المدة؟.

حيرتنى أسـئلته ولم تطاوعنى الأجوبة، قلت أريح نفسى بالسكوت وأحتمل توبيخه لى، وكان صوته يرتفع أكثر وأكثر يتهمنى بعدم الوعى وسـوء الاختيار وكأنه يبلغها برأيه فيها وفى زواجنا. ولابد أنها كانت تسمع كل شيء مثلما أسمعه لأن صوت خطواتها من وراء الباب المسكوك كان يعلن عن وجودها خلفه.

* * *

فى نفس الليلـة طالبت زوجتى بالكف عن تخويف الولد من قطتها المزعومـة فوافقتنى بحماس على غير ما كنت أتوقع وتعهدت بتنشـئة الولد شـجاعا لا تخيفه قطة ولا كلب ولا حتى أسـد. ارتحت لردودها وحدثتهـا عن طفولتى المبكرة فـى قريتنا البعيدة قبل أن نذهب إلى تلك المدينـة التى صارت لنا موطنا وسـكنا حافظ عليه أبى وتبدل بالنسـبة لى بحسب وظيفتى. ذكرت لها كيف كنت أرمح فى وسط دارنا القديمة فى تلـك القرية البعيدة لأطارد الأرانب المذعـورة والطيور الهاربة بعود حطب جاف كنت أهش به عليها. وقلت لها أيضا كيف أننى لأسباب

لا أعرفها كنت ألبس قميصا على اللحم بدون ســروال تحته وأنه حدث مرة واســتدار ذكر إوز ممن كنت أطارده مع بقية الطيور. اســتدار ورمح ورائى ثم عضنى فى مؤخرتى فأدماها وأصابنى بالرعب. قلت لها أننى كنــت أصرخ وأبكى وأتوجــع وقد جاءت أمى وجدتــى لأبى وخالاتى وبنــات خالاتى. كانــوا كبارا يضحكن من عــرى مؤخرتى التى كانت تســتحق تلك العضة كى أستر نفسى فى مســتقبل الأيام. كانوا جميعا يزودون غضبى من ذكر الإوز وكل أنواع الإوز . لكن الدرس الذى تعلمته هو أننى بعد ذلك اليوم لم أتنازل أبدا عن ســروالى. وأننى أيضا تعلمت الحذر من أى سرب إوز سارح سواء فى دارنا أو حتى فى دروب القرية أو عند شــاطئ ترعتها. بل إننى دون مبالغة مازلت أشــعر بالخوف من أى إوزة تفتح منقارها أمامى.

ضحكت زوجتى وأشــفقت على الطفل الــذى كنته وتمنت لو كانت هناك فى ذلك الزمان والمكان لتذبح ذكر الإوز العضاض وتلطخ بدمه كل جــدران الدار ليزول خوفى ولا أكف عــن مطاردة الطيور والأرانب بعود الحطب الجاف.

***

فتحت باب الشــقة لأخرج فوجدته يقــف قبالتى. كان الولد ورائى يتبعنــى بخطواتــه كى يشــير إلىّ مودعا بيده الصغــيرة مثلما يفعل كل صباح لكننى فوجئت بصرخته. استدار وحاول الرمْح فسقط منكفئا على وجهه. ســارعت أمه وحملته وحاولت إســكاته لكنه ظل يبكى. يشير

بأصابعه الصغيرة إلى القط الواقف بجسـارة يحسد عليها فى نفس مكانه عنـد مدخل الشـقة وكأنه ليث. حاولت هى أن تطـرد القط فلم تفلح. ظل واقفا فى نفس مكانه ينظر فى اتجاهنا دون أن يتزحزح عن مكانه. كان الولد ما زال يبكى بخوف وهلع وهو يشـير إلى القط وكأنما يستجير بنا لإبعاده. وكانت هى الأخرى قد أصابها نفس الهلع فجعلت تلتفت ناحيتى وكأنها تدفعنى دفعا لإبعاده عن مدخل شـقتنا. كان من اللازم أن أخلـص الولد وأمه من رعبهما لكننى كنت فى حيرة لأن القط مجرد قـط فى نهاية الأمر. اقتربـت منه. قرفصت ومددت يدى اليمنى نحوه بحـذر وبـطء والقط ثابت فى مكانه يركز نظـرة عينيه فى عينى. بدا لى هادئا وأليفا فى لحظة فتحسسـت رأسـه بحنو ونعومة. وبدا لى أنه اطمأن وسكن فى نفس مكانه فأخذت يدى تمسح على ظهره عدة مرات استشـعرت خلالها نعومة شـعره ودفئه. كان الولد يقف ورائى بعد أن أنزلته أمه بناء على رغبته وقد زال خوفه على ما يبدو. كان مسـنودا علـى كتفى بكلتا يديه. يشـير نحو القط وينطق حروفـا مبعثرة لكنها فرحانـة. تمدد القط علـى الأرض وتلوى فى نعومة أوحت لى بالائتناس لـه أكثـر. يموء فى اسـتكانة والولد يقترب أكثر ناحيتـه متأملا وربما مطمئنـا يمـد يده نحوه ثم يخطفها بسـرعة وهو يضحـك بينما ألاعب القـط ويبـدو أنه يلاعبنى. ولا أدرى كيف تذكـرت على نحو خاطف ذكر الإوز الذى عضنى فى مؤخرتى بينما أنا طفل فشـعرت بقشـعريرة فـزع مفاجـئ. ولا أدرى إن كان القط قد استشـعر خوفى أو أن راحتى

زودت ضغطها عليه أكثـر مما يحتمل فأحس بالفزع وانتفض على نحو مفاجئ وراح يخمش يدى بمخالبه فى سرعة مباغته. طال راحتى أسفل الخنصر وعضها بقسوة فأدماها ثم قفز من مكانه وفر هاربا ينزل درجات السـلم فى لـح البصر. نظرت إلى ظهر يدى التعسـة فوجدت مجموعة مـن الخطوط المتوازية والمتقاطعة من الـدم الناضح من أثر المخالب بينما الأنيـاب الهاربة قد خلفت بؤرتين فى كل ناحية تقطر الدم بوهن وهى محاطة بزرقة طارئة. كانت يدى قد تشوهت على غير توقع منى أو منها أو من الولد الذى انخطف وجهه وقد خاب أمله فى فارس نصف جسور مثلى على ما يبدو. فارس أراد أن يبدو رائعا أمام من راهنوا عليه فسقط فى شبر ماء لتضحك عليه الناس ولن يفيده التبرير أو الشعور بالخجل. تركت لها يدى تغسـلها بالماء البارد وتسكتنى كلما هممت بأن أتوجع بصوت. لكنها عندما رشـت على الجراح من زجاجة عطرها صرختُ. كنت أشعر بكل كفى شعلة من لهب صاعدا إلى كل الذراع والدماغ وكل البدن. وبالشـاش المعقم ربطت راحتى فشعرت على نحو غامض بالعار من نفسى.

***

قال الطبيب الذى بدا لى حديث التخرج شديد التفاؤل والثقة :

– المسألة بسيطة ولا تستحق كل هذا القلق. أنت فى حاجة إلى حقنة مضادة لميكروب التيتانوس وهى متوافرة فى كل الصيدليات.

وقال الصيدلانى العجوز المحاذر :

– المسألة أخطر من مجرد حقنة مضادة لميكروب، اذهب إلى مستشفى الكلب فالجروح غائرة . خذ رأى الدكتور حسن.

قالها وهو يشير إلى رجل مهندم ومتوسط العمر كان يقف ورائى، عندما هممت بسؤاله أشار إلىّ لكى أفك الرباط ليرى الجرح وعندما فعلت هز رأسه وقال من بين أسنانه:

– ما أعرفه هو أن السعار ينشأ من فيروس ينتقل مع الدم ويسكن فى المخ، يتوقف الأمر بالطبع على نوع الحيوان وحالته ومن الأفضل سؤال أخصائى. للأسف أنا متخصص فى طب العيون .

قال الصيدلانى العجوز مستفسرا ومحاولا التأكيد فى نفس الوقت:

– هل يمكن أن يصاب بسعار القطط وينونو ويخمش ويعض كقط مسعور بسبب تلك العضة يا دكتور حسن؟

همس الدكتور حسن ببعض الاصطلاحات الطبية الغامضة ولم أسمع للصيدلانى ردا، نظر إلى بحياد المتأمل غير الراغب فى مواصلة الحديث أو التورط فى إبداء رأى قاطع، تركت الصيدلية وسرت حائرا فى أمر نفسى حتى وصلت إلى مكتبى، سألونى عن أسباب ربط يدى فذكرت لهم ما جرى باختصار، طلب أحدهم منى أن أفك الرباط ليرى عمق الجرح ففعلت، قلب راحتى بين يديه وقربها من عينيه ثم قال بثقة:

– لا تشغل بالك فالحيوانات المستأنسة لا يصيبها السعار عادة، الكلاب الضالة وحدها هى التى تصاب بالسعار أما القطط المنزلية فلا خطر منها.

صححت له معلوماته وأنا أعيد ربط كفى بنفس الرباط:

– لقد كان قطا غريبا.

– قـط الجيران مثلا؟ يمكن أن يكون قط واحد من الجيران، لو كان قط واحد من الجيران فلا تقلق.

– لا أعرف شيئا عن قطط الجيران.

ساد صمت ثقيل كابوسى قبل أن يتدخل زميل آخر:

– لـو مات القط خلال اليومين القادمين فيحق لك أن تقلق ، أما إذا عاش فلا خوف عليك.

جاوبه أحد الزملاء بعصبية رغم أنه كان صامتا طوال الوقت قائلا:

– أنت أحمق دون أدنى شك ؛ إذا كان فيروس السعار ينتقل إلى المخ خلال ست ساعات من الإصابة ينعدم بعدها أى أمل فى أى شفاء فكيف تطلـب منـه الانتظار يومين لمعرفة مصير قط ضال لا يخصه أو يعرف له صاحب؟ إنه قط ضال ومسعور دون أدنى شك.

راحـوا يتبادلون الاتهامات والآراء المتعارضـة حول إصابتى أو عدم إصابتى بداء السعار بأساليب تغيظ. جعلوا من مصيرى موضوعا للجدل فأصيب عقلى بحالة تبلد مفاجئ وصرت غير قادر على الانحياز لرأى أو ضد رأى لصالح لرأى معاكس. ولابد أنه كانت قد فاتت ست ساعات منذ عضنى وخمشنى القط الغريب. قلت لنفسى إنها أول علامات وصول الفيروس إلى المخ. شملتنى رعشـة مفاجئة وتراخيت ببدنى على مقعدى ولم أعد أشعر بأى شىء. كنت أسمع الأصوات وأرى الخيالات والأشياء

مــن حولى وقد تلونت. وأغمضت عينـــيّ فرارا فرأيتها ورأيت الولد ومن جديد سمعت المواء المتواصل الشـــرس الحزين وتوهمت أنه صادر عني. وقلــت لروحى برغم الصحو إننى فى غيبوبة تلازم بدايات الإصابة بداء السـعار. قلت لنفسى إن المصاب بالسـعار ينقل العدوى للآخرين برغم إرادتــه. كانت هى تتكلم وتتكلــم ولا أفهم كلامها رغم اتضاح الحروف ونــبرات الصوت. وتذكرت على غــير إرادة منى ذلك الكلب الذى كان يحــرس باب بيت أبى فتذكــرت ذلك القط الوهمى الــذى كانت تبرع هى فى اســتحضاره لتخويف الولد ثم ظهــر لى ذكر الإوز القديم وجعل يطاردنـــى وأنا أفر منه وأراه وهو يعاود عــض مؤخرتى. كانت زوجتى تتكلم بنفس الإيقاع وهى تفك رباط يدى فأتأوه من حرقة النســيج وهى تنتزعه انتزاعا فتزود ألمى. لكنها لم تكف عن الكلام عن التصاق الجرح بالربــاط على غير ما كانت تتوقع ، ومرة أخرى فتحت زجاجة عطرها الثمين ورشت الجرح فالتهب ظهر الكف وباطنه وسرح اللهب إلى الذراع والبــدن والدماغ. صرخت مســتجيرا من الألم وأشــرت إليها أن تترفق وهى تعاود ربط الكف برباط جديد غير المحلول الذى تلطخ ببقع الدم. أمســكها من ذراعهــا فتتباعد ثم تدنو فى ثقــة وببعض الدلال. تجلس إلى جوارى فأشــعر بطراوة لحمها وهى تقترب منى. أحوطها بالذراعين بقوة لا تســمح لهــا بالتباعد أو الانفلات. أعض لحمهــا الطرى الناعم عضات مسعورة متتالية وأسمع من داخلى صوت المواء الشرس الملهوف، أسمع صرخاتها المفزوعة فأفيق لروحى على مهل. أرى القط إلى جوارى

يخمش الفراش برقة ووهن ثم يقترب منى ويتمسح فى جنبى بينما الولد فـــى الناحية الأخرى يزحف ويصعد فوق فخـــذى لكى يعبرهما بهدف الوصول إلى القط الذى صار يموء بإيقاع حزين آســف. وأفيق من شـــرود ذاكرتـــى فأجدها وقد تحررت منى وتباعدت دون ابتعاد حقيقى وكأنها تدعونـــى لمواصلة الإمســاك بها ومداعبتها. تتحســس كتفها المعضوض وتلومنى:

- يا عضاض .. يا مسعور .. يا محروم من أكل اللحم.

لعلنـــى كنت أبتســم لها بوعى وأنـــا أداعب القط الــذى لابد وأنها نجحت فى استئناســه إلى هذا الحــد المذهل فى وقت قليل رغم ما كان عليه من شراســـة فى صباح نفس اليوم. أمعنت فى مداعبة القط وأثقلت عليه لأختــبره. فظل ناعمــا وأليفا وجاهزا للمصالحة. وقلت لنفســى إنها بالفعل بارعة وقادرة على اســتئناس ليث. أنسى مخاوفى وأستبعد إصابتى بالســعار رغم سخونة الجرح فى يدى وآثار عضاتى على كتفها ظاهرة وربما توحى لمن يراها بمعكوس الأسباب.

***

الابتلاع

عيبك الخطير أنك تحول كل مآسيك إلى نكات تضحك عليها وتحاول إضحاك الخلق معك. أنا لست ضد الضحك من غير سبب معقول. حكايتك مأساة أو هى على الأقل بوادر مأساة أكبر بكل المقاييس ويلزم العمل على عدم وقوعها. سأوضح لك الأمر مستشهدا بكلامك أنت نفسك. ظاهر أى موضوع يختلف عن جوهره وسوف نسعى للوصول إلى الجوهر. الولد يكبر البنت بعامين وتسعة أشهر. والبنت لم تكمل عامها الأول وتحتاج فى هذه السن الحرجة قبل الفطام إلى غذاء كاف. لايحق لك أن تقاطعنى قبل أن أكمل كلامى. عيبنا هو عدم القدرة على الإصغاء الجيد لمن يتحدثون إلينا. المسألة ليست زمنا يستغرقه متحدث أطول أو أقصر من الآخر. يجب أن تفهم ما سبق وقلته لك قبلا من أن البعض عندهم كلام أكثر أهمية وجدوى. وقد يحتاج إلى وقت أطول مما يحتاجه أولئك الذين ليست لديهم غير بعض التعليقات اللفظية العابرة التى تسعى إلى الإضحاك وإشاعة جو من المرح المفتعل. هناك أيضا من يبرع فى صياغة أفكاره فى كلام مختصر يفى بالغرض. وهناك من يعجز عن توصيل فكرة بسيطة ولو طالت ثرثراته. كل هذا تفريع هامشى للموضوع الأساسى الذى يلزم أن نعود اليه ونفسره.

لم يكن مثل هذا الكشــف لغزا لأنك عشت مرارة الفقد منذ البداية، أعطيــت لأنه لم يكــن لديك غير الاســتعداد الفطرى للعطــاء. وعندما أدركت أنك تعيش وحيدا فى عراء العالم دون الاســتناد الى أحد فرحت لأنك لم تفعل معكوس ما فعلت. ولأن اللعبة كانت قد تخللتك ولبســتك وصــارت مــبرر بقائك الوحيــد برغم أنه حدث أن كشــر هو عن أنياب الوحش فيه واستباحك كما استباحهم. غير أن الجرح سكن فى الأعماق (الغويطة) واســتكان. وكلما ضاقت بك الدنيا كان يعنّ عليك فتســتعيد تاريخا من النهب كنت أنت أول ضحاياه».

«ليلتها أدركت أن وجودك وســط الجمع خدعة. فلا الوجه ضحاك ولا اللســان تدرب على الهدهدة والتملق. لم يكن غير الكدر على سحنة مضروبة بألف ســوط فــى الزمن الفائت وميراث مســلوب لم تتمكن من الاســتناد عليه أبــدا فظللت تترنح. وكانت مطالــب الآخرين طوقا فى عنقك يصعب الخلاص منه. وليلتها لم تسهم معهم بالقرش لضيق ذات اليــد فى حفل المأكلة بعد المشــربة. هون أكثرهم عليك الأمر وتســابقوا فى التطوع لاحتمالك. لكنك أحســســت بســخف المتطفل عندما تعابثت مــع أحدهم على قطعة حلوى مثلما فعل الآخرون فواجهك وبدا لك أنه يعايرك تصفية لحســاب قديم فى خياله. أعادك رغما عنك إلى ما فات من أمر اســتلاب إرثك القديم. وتأكد لديك ما كان مؤكدا وتناســيته فى زحمــة الرغبة فى الخروج إليهم من قوقعتك لأنه من يمتلك ويدفع يحق له البقاء فى المكان. فبكيت مترنحا بعبء شــراب ابتلعته ولم يكن من حقك».

«تقول إن الولد وقد تخطى منتصف العام الرابع أخذ « ببرونة» البنت ووضع حلمتها فى فمه وامتص محتوياتها ثم أعادها فارغة بجوار البنت النائمة التى لابد وأنها سوف تعجز فى صحوها عن حماية رضعتها من قبضة الأقوى. تقول إن الأمر لم يشغلك كثيرا إلا بعد تكراره على مشهد منــك فى الليلة التالية فأيقظــت زوجتك لتحكى لها ما حدث فلم تهتم هــى علــى عكس ما كنت تتوقع من انخراطها فــى الضحك مثلما كنت تضحــك. كانت هى غارقة فــى نومها الثقيل فتركتها لتغطس فى نفس البحر الذى أخرجتها منه قســرا. وفــى الصباح عاودت الحديث معها عن اكتشــافك بنفس الحماس لإضحاكها فبدا لك أنها تســتمع إلى نكتة ســخيفة سمعتها ألف مرة. لابد أنك شعرت بالخجل لحظتها وتلعثمت على عادتك. ثم حدثتها متواريا خلف نبرة الفاهم مقدما إليها تفســيرك الخاطــئ بأنه مجرد حلم. حلم بــرئ لطفل برئ يبتلع - بينما هو نائم فــى واقع الأمر مســتيقظا فــى ظاهره - جرعة لــبن صناعى لا تخصه تنفيســا عن رغبــة مكبوتة فى ابتلاع ما كف عــن ابتلاعه تنفيذا لإرادة الكبار. حدثتها عن كل ما سمعت به من كشــوف فى علم نفس الأطفال فلم تسعفك باستعدادها للسماع وغيرت الموضوع».

***

«وزور هو أوراقا بشراء الأرض والدار. واستخدم بصمة الراقد فى ركن القاعة رقدة الموت. كانت هى تحت قدميه تحرســه وتنتظر تلبية ما قد يصدر عنه من رغبات. لكنها أغفت فى قيلولة ســاكنة لتتيح له إكمال مراسم السلب بلا مانع. اشترى هو شهود زور ودفع واطمأن إلى ضمان

الامتلاك، ويوم طالبته هو بأن يتولى بنفسه تقسيم الميراث بعد ذكرى الأربعين ضحك ساخرا من حسن نواياها لأنه أصبح وحده سيد الدار ومالكها ومالك الأرض أيضا. ضربت هي صدرها المهدود براحتيها وخرج صوتها ندبا متواصلا لملم كل رجال الدار وحريمه يستفسرون إن كانت حلت بالدار مصيبة جديدة؟ فأشارت إليهم أن اسألوه. وعندما سألوه أجاب ببساطة إنه اشترى الأرض والدار بمحض إرادة الرجل ودفع. أظهر عقد البيع فتأملوه وتبادلوه ومصمصوا الشفاه. وقال لهم إن الرجل الكبير كان يكره الضعفاء ويعشق الأقوياء القادرين على حماية ميراثهم من عدوان المتربصين. كان متبجحا إلى حد أنها أنكرت أن تكون بالفعل قد حملته في بطنها تسعة أشهر أو أرضعته من لبنها. تبرأت منه قبل أن تسقط من طولها، ولم تقم لها بعد ذلك الصباح الصعب قائمة، غاب عنها العقل الموزون وانفتحت العينان لترقب العدم. بقيت جالسة فوق فراشها مشلولة الأطراف واللسان تتأبى على الرقاد، علها بانسحابها على هذا النحو حسبت نفسها دون وعي تكفر عن لحظة الغفلة التى أتاحت له فرصة التحكم في مصائرنا بلا حياء»

❋❋❋

«أمهات الزمن الفائت يا صاحبى كانت تعرف واجباتها الأساسية وتقوم بها على خير وجه، كانت الواحدة منهن تصحو من نومها إذا كح طفل أو تقلب في فراشه، يدها المدربة تتحسس جبهته لتطمئن على حرارته دون مقياس للحرارة، تسرع بالقيام من مرقدها في برد «طوبة» لتعمل له الينسون أو النعناع بحسب ماتتطلب الحالة. زوجتك مأساة

بكل الحسابات لأنها تستغرق فى النوم وتترك الولد يمارس استغفالها، يستلب غذاء البنت وقديما قالوا إن المال السائب يعلم السرقة. وهو قول صائب يتأكد صدقه كل يوم لو قرأنا ما ينشر عن بعض تلك الشركات الاستثمارية والبنوك الأجنبية والمشاريع الوهمية التى يؤسسها محتالون على مستوى عالمى بهدف استلاب رصيدنا وتمييع ميراثنا. القياس مع الفارق طبعا لكن الغفلة هى الغفلة. والأم التى تسمح باغتصاب جرعات من اللبن الصناعى قبل أن تصل إلى فم طفلة فى عامها الأول لا تؤتمن على مصيرها فى مستقبل الأيام».

***

«وقالت البنات بعد موت الأم محسورة: «دافع عنا وساعدنا لنستعيد حقنا المسلوب حتى لو لجأت إلى قتله ما شهدنا ضدك». لكنك استخدمت حكمة الأفندية وجمعت مجلسا من كبار رجال العائلة وطرحت عليهم ما كان من أمر الحق الضائع. فطيبوا خاطرك ببضع عبارات: «عيب أن تتهم أخاك الأكبر وهو الذى صار فى مقام المرحوم والدك. ما فى جيبك فى جيبه وما فى عبّه فى عبّك والدم لايتحول إلى ماء. البنات مصيرهن الزواج والواحدة منهن لها جهازها كأحسن ما يكون فى شرع العائلة. أما أن تستولى على موروث من الأرض وتضيفه إلى ملكية غريب فهو ما لن يقبله أحد منا ولو طارت فيها رقاب. وأنت أفندى لن تزرع أو تحصد. شهادتك سلاحك الذى يعفيك من طين الأرض ووسخها». وانفض المجلس فتحسس هو ذقنه وهز رأسه متوعدا فابتلعت أنت الخذى لأنك جرؤت على فضحه فى حضورهم».

«تقول أنت أنه حدث أن تطوعت بمحض اختيارك لإعداد جرعات اللبن الصناعى للبنت فى تلك الأمسيات التى مرضت فيها والهانم تستغرق فى نومها عقب ذلك المسلسل الساذج الذى تصادف وكان يعرضه التليفزيون أيامها. كنت تعد الرضعات وتضعها بين يدى البنت وأنه حدث أن فعلت نفس الشيء مرة وخرجت من الحجرة بحثا عن عود ثقاب تشعل به سيجارتك ثم عدت لتجد عبوة اللبن الصناعى قد تلاشت عن آخرها والبنت تبكى بحرقة والوعاء الفارغ بينها وبين الولد الذى بدا لك متناوما يدارى جرمه ويتقلب فى الفراش بغير معنى».

* * *

«وذهبت لحضور حفل زفاف كبرى البنات مكرها لأنه لم يكن من المناسب لطبعك التخلى عنها فى يوم فرحتها. قابلك أمام الغرباء بعبوس الوجه وفتور الكلمات فأجهدت نفسك لتحتفظ بشكل علاقة مألوفة بين شقيقين أحدهما وفد من مدينة يعمل بها والآخر راسخ ومعدود فى عائلة تشمخ بالأنوف اعتزازا بجذورها الضاربة فى طين الأرض رغم ما يجرى بين أفرادها من انتهاب الحقوق المشروعة واستلابها. كان اسم العائلة يطن فى أذنيك ويجلجل فى مكبر الصوت وكأنه يعلن للأسرة الأخرى تحذيره الخفى شأن أفراحها التى تتحول إلى سباق بين عائلتين. ولأنه مثل دور الأخ المسيطر عليك فامتثلت للأمر. انتحى بك جانبا وسألك عن سر غيابك الطويل عنهم وتمسح فى أشواق البنات متناسيا أنه طردك. فاعتذر المطرود للطارد عن تقصيره فى طرق بابه من أجله ومن أجل أشواق البنات. كنت تتعامل معه بحذر وتخشى لو دب بينكما

خـــلاف جديد أن يحرمك من تقليل شـــكاياتهن من أفعاله فى غيابك. ربمـــا لأنك كنت أحيانا تفلح فى تخليص بعـــض حقوقهن منه بالحيلة أو بالحزم المتودد المحســـوب أو حتى بالدعابة فى لحظة انتشـــائه من أثـــر الدخان الأزرق الذى يخرج من صـــدره العريض مصحوبا بضحكاته ونحنحاتـــه. كان يتجاوز حدوده ويســـألك إن كنت أيها الأفندى قادرا على دفع تكاليف قعدة من قعداته المسائية فتجيب بالنفى حتى لا تسودّ الليلة. يضحك ويوشـــك أن يجعلك هدفا لإضحاك أتباعه ناســـيا أنه هو نفســـه الشـــقيق الذى نهب ميراثك الذى به يتباهـــى. وأنه أجبرك فى واقع الأمر على العمل بنصف مؤهل هو مجدك وعارك فى ذات الوقت. سلاحك والطعنة النافذة فى قلبك. مصدر زهوك لأنك انتزعته بعناء من واقع شـــرس خلال ســـنوات اغترابك. كان يتأكد لك صدق ما ســـبق أن قرأته من أن العالم انقســـم إلى مظلومين وظلمة. مقتولين وقتلة. حاكمين ومحكومـــين. فقراء تنطمس تحت الرمـــاد مواهبهم وقدراتهم على الفعل المثمر وأغنياء أكثرهم حمقى مثله. يباهون ويتيهون لأنهم يســـهمون فى إفساد العالم أكثر».

* * *

«تقول إن الشـــكوك حامت حول دماغك على نحو غامض. خطرت فى خيالك شـــاحبة وبعيـــدة ثم تخلقت وبعثـــت ومضاتها التى حيرت الدماغ بقدر ما بعثت فيها من مشاعر الارتياح. وفى المساء التالى أخذت الولـــد لينام فى حجرتـــك خلافا لاعتيادك النوم منفـــردا. كان يقوم من فراشه فى منتصف الليل أو قرب الفجر، يخرج من الغرفة ويتصادف أن

تشـعر بحركته فتسـأله عن وجهته فيرد عليك بأنه ذاهب لقضاء حاجته فـى دورة الميـاه فتفرح به متوهما أنه تعلم أخـيرا أهمية المحافظة على نظافـة الفراش وجفافه. كنت تتقلب ولا تشـغل نفسـك فى أول الأمر بمتابعـة خطواته حتى اكتشـفت أنه يذهـب إلى الحجرة الأخرى كأى لص محترف ليسـتلب غذاء البنت بينمـا الأم غافية إلى جوارها وغارقة فى بحر العسل والمنامات الوردية. ذلك أنك قمت من رقادك القلق ذات مسـاء على صراخ الطفلة. ذهبت لتهدئتها بينما الهانم لا تسمع بسبب النوم الثقيل لتكتشـف اسـتلاب الرضعة التى كنت قد أعددتها لتوّك. ليلتها أيقظت الأم غاضب رافهمتها أنه من أبسط واجباتها كأم أن تحمى صغيرتها من لصوصية الولد. لكنها سـخرت من فكرتك وأنكرتها تماما مؤكدة أنها ناولت البنت جرعة اللبن بنفسـها قبل أن تغطس فى النوم وحاولـت أنت عبثا إقناعها بـأن الولد ابتلع غذاء البنت الذى كنت قد أعددته لها بنفسـك. تشـككت فى أمر ذاكرتها وسـايرتك لتهدأ قائلة إن الأمـر لا يسـتحق كل هـذا الغضـب لأن الأمر فـى النهاية نوع من أنانية الأطفال شـائع. الغريب فى الأمر أنك تسـاهلت وسكنت نفسك واعتـبرت أن الأمر على هذا النحو نكتـة. بل إنك كنت ترويها مؤخرا على مسـامع الأصدقاء والجيران وزملاء العمل مستجديا ضحكاتهم على الطفل والطفلة. وفاتك أن الأنانية شـعور إنسـانى لا ينتهى فى مرحلة الطفولـة وإن كان يبدأ منها ويسـتفحل خطره فـى الزمن التالى. وفاتك أيضـا أن توكد لها ولنفسـك أن من يفرط فى حـق طفلة لم تكمل عامها الأول مستعد أن يتعامى عن حقوق شعب واستلاب وطن».

المتوحدان

وفــى الكابوس الكابس على قلبى وعقلى رأيتنى زوجا لنفس الزوجة وأبــا لنفس العيــال. كانت أحوال زوجتى لا تطاق بســبب إنها كانت تعــترض علــى كل اعتراضاتى الشــرعية وغير الشــرعية. كنت أكابد من تكــرار محاولاتى لإفهامها منطقية أســبابى التى تــبرر اعتراضاتى فلا تســتجيب أو تبدى استعدادها لإمكانات الاســتجابة أو الفهم. كان عيالى فــى الكابوس يكابدون العرى والحرمان والمــرض ولا أملك القدرة علــى مســاعدتهم لضيق ذات اليــد. وفى نفس الكابــوس الكابس على أنفاســى كان لزوجتى شــقيق وحيد قادر على الانقســام بحيث يتحول إلى ثلاثة أشــقاء بمثل ما كان لى شــقيق واحد يمكنه الانقسـام إلى ثلاثة أشقاء وقتما يشاء.

كان شقيق زوجتى وقت الانقسام يتحوّل إلى سمســار مواشى فى سوق بلدتنا مع تاجر ســوق سوداء فى المدينة التى نتعايش فيها بكل العسر. أمــا الثالث فــكان عميلا لأكثر من جهــاز من أجهزة الرصــد والمتابعة والمراقبة. كان من الممكن أن أحتمل تاجر الســوق الســوداء أو سمســار المواشى رغم الخسائر التى كنت أخسرها بسببيهما. صحيح أننى كنت لا أهتم بأســعار المواشــى إلا فى أضيق الحدود لأننى لا أشترى لحومها إلا فى المناســبات الســعيدة التى هى قليلة ونادرة. لكن تاجر الســوق

الســـوداء كان يكوينى وينتقم منى على أبشــع نحــو لأنه كان يطاردنى أو يجعل صبيانه يطاردوننى كلما احتجت شــيئا ضروريا من سوقه الذى يســيطر عليه. كنت أدفع أضعاف أثمان كل ما أشــتريه للاســتهلاك اليومى أو الشــهرى أو الســنوى. وسواء اشتريت منه مباشرة أو من أحد من أعوانه أو شركائه فقد كنت أدفع بزيادة مُكرها. والذى كان يكيدنى هــو إلحاح زوجتى - التــى هى أخته - علىّ كــى أكف عن الاعتراض وكانــت فكرتها تتلخــص فى أنه أحق من الغرباء فى ابتزازى. وما دام الكل يكســب فى سوقنا السوداء بنفس البشــاعة فلابد أن أخاها مظلوم لأننى أصــب عليه وحده كل غضبى وأعلن عليــه احتجاجاتى وكأننى استخســر فيه الربح الحلال بموازين الســوق. كانت تستشهد بحديث مروى عن رســولنا الكريم يقول فيه إن تسعه أعشار الرزق فى التجارة. أطالبها بأن تمهلنى فترة حتى أراجع صحة الحديث فتتهمنى بالخروج على الناموس أو حتى من دائرة الإيمان. أتعذب وأشعر بوحدتى فأحاول مرة أخرى أن أفســر لها فكرتى فلا تســتمع لى ولا تتيح لعيالى إمكانية الاســتماع لى مخافة أن تفسد عقولهم مثلما فسد عقلى. أو مروقهم مثلما مرقت وتشــككت فى الحديث الصحيح. أتحير أولا ثم أستســلم وأسمح لعيالى بالشــراء منه بأعلى الأســعار لكنها لا تســامحنى وإن سامحتنى لم تغفر لى ســوء النوايا أو الحقد على الشطار من تجار المدينة وهو عيب يصعب إصلاحه وقد فات الأوان.

لكن الشخص الثالث والذى هو عميل لأكثر من جهاز من أجهزة الرصد والمتابعة والمراقبة فقد كان هو ســر مأساتى ونكبتى وجوهر اعتراضى على

الاحتمال. ذلك أنه كان يأتي ويكتفي بالجلوس في قلب المسكن ساكنا وصامتا. يتأمل بلا ملل محتويات المكان ويفحص بإمعان كل ما يرتديه العيال أو ترتديه زوجتي. يحسب حساباته ويقدّر ثمن الوجبة الواحدة ثم يضربه في عدد الأيام. ولابد أن وجوده كنيف كان يفرض علينا تزويد كمية ما نشتريه من بعض السلع أو حتى تفضيل نوع أغلى على نوع أرخص من باب إكرام الضيف المشارك في الوجبات. لكنه لم يكن يهتم بمثل هذه الفروق. وبآلية كان يكتب التقارير عن دخلي المحتمل وربما يضيف إليه ما قد يكون قد وصلنا من بعض المعارف أو الجيران على سبيل الهدية أو المجاملة. بل إنه كان يحسب أيضا أشياء صغيرة لا يلتفت إليها المرء من أمثال كوب شاي دعاك زميل عمل إلى شربه على حسابه أو توصيلة تطوّع بها صديق وأنت في طريقه ليحميك من زحمة المواصلات العامة. كان يحسبها ويضيفها إلى الدخل الشهري أو السنوي. يكتب تقارير مطولة ثم يرسلها بالفاكس من مكتب الكمبيوتر الجديد الذي انفتح مؤخرا عند ناصية حارتنا. يفسر لها الأمر على أنه عمل مشروع يقوم به فتطالبني بأن أكون أمينا معه وألا أحاول أن أخفي عنه أي معلومة ولو كانت بحساباتي تافهة لأنني بذلك قد أعوقه عن تأدية الواجب الذي هو مكلف به. ولأنه لو لم ينجزه على خير وجه وبدقة فسوف يتعرض للمساءلة أو يتأثر مستقبله كرقيب وراصد وكاتب تقارير معتمد. وعندما أعترض على فهمها لوظيفة أخيها تثور وتغضب وتذكرني بأن كل شيء في حياتي مكشوف وواضح وضوح الشمس، وأن ما يجري في بيتنا وخارجه ظاهر ومفهوم وسهل التفسير. ولأن كل خطوة أخطوها محسوبة

وكل فعــل أو رد فعــل فى حياتى معروف فإنه يتســاوى عندها أن يكون أخوهــا هو المكلــف بمتابعتى أو أن يكون غيره. لكنــه بالقطع لو كان لها حق الاختيار فإنها ســوف تختار شقيقها لأنه بحسابات العقل والدم أولى مــن الغرباء طالما أن النتيجة فــى كل الحالات واحدة ولن تتبدل. وعليه فيلزم الاستسلام له وتسهيل مهمته حرصا على مستقبله الذى يهمها ومن الواجب أن يهمنى بنفس الدرجة. أقاومها فترة فينكبس صدرى ثم انهار واستسلم لأن أكون هدفا مكشوفا لشقيقها إلى حد العراء الفاضح.

أمــا أخى الوحيد فكان أمــره يختلف فى الكابوس. ربما لأننى كلما أوشــكت على الإفاقة أتذكر وحدتى المطلقــة فى هذا العالم لأنه لم يكن فــى حياتــى أى أخ أو أى أخت.. وعليه كنت فــى الكابوس أفرح على نحــو مــا لأنه تحقق لى وهو كابوس كابس على أنفاس حلم ظل يراودنى فى طفولتى دون أن يتحقق أبدا. فمن هذه الناحية كان الكابوس مفرحا بمعنى من المعانى.

كان أخى عندما ينقســم فى الكابــوس يتحول إلى قاتل مأجور وآخر نّباك بارع فى ابتزاز العملاء. أما الشخص الثالث فكان لسوء الحظ شبيها بثالث أشــقاء زوجتى على نحو ما لأنه كان محاســبا وراصدا للحركة ثم مفســرا للمشاعر الإنســانية الكامنة مترجما للحركات العفوية وزلات اللسان. كان حالة متفردة فى ادعاءاتها للمعرفة استنادا إلى بعض قشور الأســس المنهجية الشائعة. كان يرددها بزهو أنصاف المتعلمين ويضيف إليها ســوء الظن المســبق لتصرفات البشــر وأقوالهم ومحاولاتهم لتبرير بعض أفعالهم حتى يثبت لهم الدليل القاطع معكوس فروضة المسبقة.

كنـت من ناحيتـي لا أهتم بالقاتل المأجور لأنه من المسـتحيل أن يقتلنى ما لم يحصل على أجر لائق بقاتل محترف. إضافة إلى كونه من داخل الداخل يخشانى لأسباب لا أعرفها رغم أنه لا يخشى على وجه البسـيطة أحدا. لربما كان ذلك بسـبب ما كان يدّعيه من أننى أشبه أبى الذى هو أبوه فى نفس الوقت. ولربما بسـبب أنه فى أحد المرات تصـارع معـى فصرعته وإن تظاهر وقتها بأن الأمـر كان مجرد مداعبة بين شـقيقين. لكن الأمر كان بيننا واضحا وجليا ويصعب إنكاره برغم مرور السنوات وبرغم ما تبدل فى حالى وحاله خلالها وبرغم كونه الأخ الأكبر لى.

لكن السـباك البارع فى الابتزاز كان لا يعفينى من الدفع فى أوقات لا تناسـبنى. أطلب منه تغيير جلدة صنبور فيفسـده ويفسـد الوصلات والكيعان والمحابس ويقوم بتدمير كل التركيبات التى تصل إليها أدواته ثم يحاسـبنى بحسـب ما يقدر هو دون أن يسـمح لى بـأى تخفيضات أو تأجيلات فى السداد. ويهددنى فى كل حالة بترك المحابس مفتوحة والمواسير محلولة مما يعنى أن مسكنى سوف يغرق بمياه البلدية وعوادم الصرف الصحى . وكنت أدفع وأدفع وأُمنى نفسى بالخلاص من تزويد مطالبه إذا ماطلت أو أجلت .

أما الشـخص الثالث فكان مشـكلة لأنه بحسب دراساته وممارساته قادر على كشف كل ما يعتمل بداخلى وما لا يعتمل. ولابد أنه استفاد من علاقة الدم بيننا إلى أبعد حد حيث قدم لى مسودة دراسة عن الأحاسيس المشتركة المحتملة بين الأخوة غير التوائم ومن فرط كثرة هذه الأحاسيس

كنت أنظر إليه باعتباره مرآة تنعكس على سطحها كل هواجسى وظنونى وأمنياتى ومواجعى وهمومى وأحلامى فى المستقبل، وشيئا فشيئا كان شقيقى يتحول إلى عين راصدة ترانى بعينى وتحس بمشاعرى وحواسى الخاصة، وباختصار كنت أشعر فى وجوده بأنه لا خلاص لى ولا إمكانية فرار، وعليه لم أكن أرحب بوجوده بيننا لفترات طويلة. لكنه اتفق على نحو غامض مع شقيق زوجتى رغم الخلاف الدائم بينهما وعدم الاستلطاف المتبادل الذى يصل إلى حد الكراهية المعلنة فى كل مناسبة، اتفق معه على أن يتواجد أى واحد منهما فى الأوقات التى لا يتواجد فيها الآخر وأيضا فى الأوقات الحرجة التى يلزم فيها خلو المسكن من الضيوف أقارب أو غرباء. وعندما كنت أشتكى لزوجتى من ثقل عبء الضيافة كانت تدافع بحرارة :

«هكذا أنت لا تحتمل أخى أبدا، كأنه غريب وليس من نفس العائلة».

أو تخبط كفا بكف وتبدى اندهاشها من شكاياتى :

«حتى أخوك الأكبر الذى هو فى مقام والدك لا تطيق وجوده! يا رجل سلم أمرك للخالق وخلص نفسك من هذا الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدرك».

أكف عن الشكاية وأتحامل لاحتمال أى واحد من هؤلاء الأشخاص الذين ينقسم شقيق زوجتى إلى ثلاثتهم أو الذين ينقسم شقيقى إلى ثلاثتهم. لكن المأساة الحقيقية لم تكن فى الانقسام أو الانشطار وإنما كانت فى التوحد، توحد الثلاثة-أخوال العيال-فى واحد لا يطاق ولا يحتمل

أو توحد الثلاثة ـ أعمام العيال ـ في واحد مستحيل لكنه موجود ومتحقق وكابس على أنفاسي. كان الواحد منهما يأتي بجلبابه الريفي وقد اصطحب طفلين من أطفاله. يحتل الصالون الكائن في نهاية الصالة الطويلة من جهة الشرفة. يجلس معزولا بقصد ولا يشاركنا في أي شيء، لا يحادثني أو يحادثها أو يسمح للطفلين بمحادثة أي واحد منا أو من عيالنا ولو كان المتوحد هو خال العيال حاولت هي عدة محاولات أن تحادثه في أي موضوع فينظر إليها ولا يرد أو يرد – إذا ألحت وكررت سؤالها عدة مرات – بشكل مقتضب يشي برغبته في إراحة دماغه من الكلام. أما إذا سمعنا صوته يتهامس فذلك لأنه يوصي طفليه بعمل شيء أو الحصول على شيء أو مناولته أي شيء وكثيرا ما كان المتوحّد ينشطر ويتحول إلى ثلاثة رجال يبرعون في الجدل بصوت مرتفع في موضوعات تليق بسمسار مواشي يتجادل مع تاجر سوق سوداء ومسئول عن رصد الحركات وكتابة التقارير. أما إذا كان المتوحد هو عم العيال فقد كان الحوار الصاخب يدور بين القاتل المحترف المزهو بقوته وقدرته على إزهاق الأرواح بأعلى سعر في سوق القتلة بينما الآخر الذي هو سباك بارع في إفساد دورات المياه ومواسير الصرف الصحي يتباهى بقدرته على الابتزاز لآخر قرش في بيت الزبون. لكن الشخص الثالث والذي هو دارس لكل ما يعتمل داخل النفس البشرية كان يتأملني وربما يحصي ضربات قلبي في الدقيقة أو عدد الأنفاس التي أتنفسها. وأراني مرئيا من الداخل بعينيه القادرتين على النفاذ لفحص الأحشاء وتلافيف المخ قبل أن يسجل كل شيء ويرسله

بالفاكس المحمول الذى يملكه ويداريه فى فتحة «السيالة». أما إذا توحد فإننى أراه وقد أحاط نفسه بزوجته وعياله والجميع يمارسون حياتهم منفصلين عنا تماما، ولا يبادلوننا إلا تلك العبارات الإجبارية ساعة تناول الوجبات أو صراعات عياله على الكراسى التى تجاوره أو تقترب منه حول ترابيزة السفرة.

وفى الكابوس الكابس على العقل والقلب كنت أتباكى وحدى على حالى بينما تتهرب هى من مواجهتى وتتشاغل بإعداد الطعام أو الشاى أو غسيل الأطباق ومواعين الطبخ. وإذا شكوت لها قاطعتنى وطالبتنى بالصبر وبأن أفتح قلبى للأهل لأنهم أكثر إخلاصا من الغرباء. أجاريها وأتظاهر بالاقتناع بينما إرادة الصحو عندى تُسر إلى بأنه مجرد كابوس وسوف ينزاح .

***

شريط الوصايا

كانت مصادفة غير محسوبة تلك التى جعلته يعثر على هذه الشرائط القديمة فى قاع كرتونة مشحونة بكتب دراسية تخص أولاده فى مراحل متفاوتة من سنوات الدراسة. كان لايذكر أنه أخفاها بهذه الكيفية الكفيلة بإفسادها، ولابد أنها ضاعت منه قبل أن يعثر عليها من دفنها فى قاع الكرتونة، أو أنها فى الواقع لا تخصه، كان يملك الوقت والرغبة فى التعرف على هذه الشرائط، سك باب حجرته بالترباس وأدار المسجل يجربها شريطا فى إثر شريط. أدهشه أنها من تسجيلاته المحببة إلى نفسه، أغنيات لسيد درويش وعبد الوهاب القديم وأم كلثوم وبدايات عبدالحليم وحلقات من ساعة لقلبك بالإضافة إلى عشرات الخطب المسجلة لخطب جمال عبد الناصر والتى تأكد أنه هو الذى كان قد قام بتسجيلها فى أهم المناسبات بحساباته فى ذلك الزمن الفائت. أدهشه ذلك الصفاء الكامل فى معظم الشرائط وأسعدته صلاحيتها للاستخدام رغم مرور السنوات. كأنه كان يستعيد روحه كما كان فى السابق ببطء ووهن فى أول الأمر ثم بشدة ولهفة وتعجل، وقد تفاعل وازدادت رغبته فى كشف المزيد والعودة إلى الزمن القديم ، كأنما انمحى من عمره ربع قرن من الزمان. توهجت مشاعره رغم ما كان يكابده فى السنوات الأخيرة من ثقل فى حركته وافتقاده لإمكانيات الفعل بحسب ما يرغب ويتمنى،

كان يشعر أنه قد تحول إلى جمرة ملتهبة من الداخل وإن كان سطحها الظاهر منطفئا وباهتا يغطيه الرماد.

كان عبد الناصر يؤمم قناة السويس وفريد الأطرش يغنى للربيع وفيروز تنادى لشادى قبل أن يضيع شادى وكانت أم كلثوم تترنم برباعيات الخيام وعبدالحليم يغنى للسمراء التى هى حلم الطفولة، وكان عبد الوهاب يتعبد فى الكرنك ونجوم ساعة لقلبك يعيدون لقلبه بهجة الزمن الفائت، ولابد أن هواء الحجرة كان يتبدل على مهل وأن نسمات الهواء المنعش كانت تتسرب إلى رئتيه مع تلك الأصوات التى تبثها تلك الشرائط المسجلة، تتسرب بيسر وتتجدد أو هكذا كان يحس ويصدق أحاسيسه .

تنبه إلى ذلك الشريط الذى سقط بين الجدار وجانب المكتب فى الحيز الضيق المعتم دائما والذى كان لا يتيح له اكتشاف ما كان يتساقط فيه من أشياء، أقلام تختفى أو رسائل يكون قد وضعها على سطح المكتب بهدف الرد على من أرسلها فى الوقت المناسب لكنها تتوه من ذاكرته حتى يفاجأ بها محطوطة فوق سطح المكتب وغالبا بعد فوات الأوان، يعلن عن غضبه ويحتج لأن أشياءه تختفى وتظهر بحسب ما يريدون هم. وفى كل مرة كانت زوجته تحدثه عن الكيفية التى عثرت بموجبها على تلك الرسائل أو الأشياء فى نفس المكان وبنفس الطريقة. بعدها تتشكى من الجهد الذى بذلته لإفراغ المكتب من كل محتوياته حتى تتمكن بمساعدة الأولاد من زحزحته عن مكانه بهدف تنظيف ما تحته، وفى كل مرة كانت تعاود حديثها غير المتعاطف مع

ذلك المكتب الضخم العتيق الذى يشــغل نصف مساحة الحجرة بالطول والعــرض. كانت تذكره كل مرة بضيق الشــقة وازدحامها بالضروريات التى يصعب الاســتغناء عنها مثل أســرّة نوم العيال ودواليب ملابســهم الصغيرة والترابيزات التى يستخدمونها فى المذاكرة والأكل. وكان يفهم أنهــا تتحين الفرص لكى تدفعه دفعا لأن يفــرط فى مكتبه القديم الذى ورثه عن أبيه. وصحيح أنه فرط على امتداد ســنوات عمره فى أشــياء كثــيرة لكنه لم يشــأ أن يفــرط فى هذا المكتب أبــدا. وكم اعترض على تلميحاتهــا وتصريحاتها حول مكتبه قبل أن تسترســل فيها. ونادرا ما كان يكتم رغبته فى العراك معها لأنها لم تسأم تكرار نفس الكلمات حول نفس الموضوع وإن دخلت له من الأبواب الخلفية أحيانا :

– البنت كبرت وتحتاج إلى ســرير تنام عليه وحدها. شــقتنا صغيرة يا مصطفى وللضرورة أحكام .. دبرنى.

لكن مصطفى كان يتحول إلى بغل أسترالى عنيد وجاهز للرفس. قادر على جلب النكد وافتعال الغضب. يسك الباب على روحه من الداخل بالترباس ويرفض أن يفتحه إلا بعد أن تبدى هى أسفها عدة مرات من وراء الباب وتتعهد أيضا بأن تكف عن فتح موضوع المكتب مرة أخرى. كانــت تتعهــد دائما وتعجز عــن الوفاء بالعهد لأســباب يعرفها مثلما تعرفها هــى وربما بوجع أكثر. وماذا يفعل هو فى ضيق المكان والبنت التى كبرت بالفعل؟ هل هو ســوء الحظ كما يقولون أو أنه ســوء التدبير الذى حبســهم فى شــقة لا تليق ولا تسعهم ؟. لكنه على أى الحالات كان يدرب نفسه على الاحتمال ومزيد من الاحتمال والسكوت.

احتال على الشريط المدفوس فى ذلك الحيز المعتم حتى أخرجه، دقق النظر فى وجهيه ليستدل على هوية ما هو مسجل عليه فلم يستطع، مجرد حروف مطموسة ومتناثرة لا تشكل كلمات لها دلالة أو تميز الخط ليتعرف على صاحبه. وضع الشريط فى الجهاز وشغله. فى البداية سمع صوت الشيخ محمد رفعت يختم سورة الرحمن ثم سمع صراخ أطفال وجلبة لا يبين منها شيء، مجرد ضجيج متداخل وصخب ثم ضجيج متواصل وصخب وصراخ أطفال وجلبة. ولابد أنه انتظر كثيرا قبل أن يسمع نحنحات الرجل وتنهيدته التى كانت تسبق صوته المنطوق. تمثله واقفا كما كان يفعل وهو يشير بسبابة يده اليمنى منبها ومحذرا قبل إعادة وصاياه التى لم تتبدل أبدا. وتفكر أنه لابد كان فى تلك اللحظات يتسمع بأدب ولايصدر عنه أى صوت أكثر من صوت أنفاسه التى يرغب فى أن يحبسها أيضا. كان قد اعتاد فى مثل هذه الحالات أن يوافق بالإيماءات ويقلل من جسارته فى بعض الحالات ليوافق بالهمسات المهذبة. الذى أدهشه وهو يسمع صوت أبيه من خلال الجهاز أنه كان فيه نبرات صوته هو أيضا. نفس النبرات التى يحدثها بها أو يتحدث إلى الأولاد عن الدنيا التى انقلبت موازينها. عن أسافل الناس الذين صاروا يطلعون السلالم الاجتماعية قفزا دون التفات إلى الوراء أو تردد. وصغار النفوس الذين يتقافزون على أكتاف الكبار ثم يسخرون منهم بعد أن يحققوا المكاسب. نفس العبارات تقريبا ونفس النبرات. ولعله سأل نفسه إن كان الرجل الكبير فى ذلك الزمن البعيد كان يقرأ فى كتاب المستقبل أو أنه كان قد انكشف عنه الحجاب إلى هذا الحد؟.

كان شـريط التسـجيل الذى عثر عليه مثل الدليل الذى يؤكد به الإنسـان لنفسه ولمن يعاشـرونه أنه لم يخطئ فى شيء،كان يجمعهم حوله ويشغل الجهاز ويراقبهم خفية ليرى ردود أفعالهم. يرى نظرات الاسـتهانة المخفية خلف سـتائر الأدب المرسـوم على الملامح رسما. وكانـت هى تجامله بما يريحه من عبـارات ويطمئن روحه الحائرة. تتباهى بحكمة الأب الذى رحل منذ سنوات طويلة وكيف أن وصاياه مازالـت صالحة لزمانهـم وأى زمان. «فالأدب هو الأدب والتربية هى التربيـة يـا أولاد» وكلام آخر تقوله للأولاد قبـل أن تقوم وتتركه مع شـرائطه التى عثر عليها وشـغلته عنهـم أكثر مما كانـت تتوقع أو تتصـور، صار فى واقع الأمر مركونا فى الهامـش باختياره. متباعدا عنهم يتسلى أو يسـتعيد ذاته وكأنه يقاوم الحقيقة. حقيقة أنه بقيت له بضعة شـهور قبل أن يحصل على إجازة المعاش. لابد أنه فكر فى الكيفية التى يسـتطيع بموجبها أن يقضى أوقـات الفراغ الآتى وهى ممتدة وبلا نهاية، فراغ سوف يتلوه فراغ ومن بعده فراغ بالقطع. فهل يتحول فى هذه الأوقات الممتدة إلى مجرد شـيء ثقيل ومقلق وشـاغل لحيز لايسـتحقه مثل مكتبه القديم الضخـم الذى ورثه عن أبيه وظل يعاند ولايفكر فى التفريط فيه رغم ضيق المكان وحاجة البنت البكرية إلى سـرير تنفرد به فى حيز يخصها؟ كان يسبق الأيام بخياله ويطرح على نفسه الأسئلة التى كان من اللازم أن يطرحها على نفسه فى الزمن السـابق، ربما منذ البدايـات الأولى عندما كان مأمورا جديدا لضرائب المهن الحرة ثم مفتشـا ورئيسـا للمأمورية. وكيـف أنه كان قد سمع

الوصايـــا ونفذها بدقة ليحافظ على شـــرفه المهنـــى رغم كل الإغراءات التى كانت تصادفه وتلاحقه، كان بحســـب ما يرى نفسه يمشى على الصراط المستقيم ويطاوع بالحرف ما أوصاه به الأب القديم، كان يرقب ذمم الناس وهى تتســـع وتتســـع وتصبح مثل بالونات الاختبار الملونة بألف لون ولون. وكانت الأشياء تتسمى بغير أسمائها والوجوه تتخفى وراء مئات الأقنعة بينما هو ثابت فى مكانه رغم الطنين المتكرر ووصايا المفسدين بأن يتخفف من ذلك التشدد الزائد الذى يقطع عنه الكثير من الرضـــى عنه والرزق أيضا، كأنه كان فى وظيفته تمثالا صخريا جامدا لايلين، معزولا إلى حد بعيد عن غالبية الزملاء والمرؤوســـين والرؤساء، وها هو يوشـــك أن ينهى أيام خدمته التى طالت وهو فى نفس المكان القديـــم الذى ضاق به وبعياله إلى حد الاختناق بحســـب ما كانت هى تذكـــره أو تلومه بنعومة أو حتى تعايره دون أن يبدو عليها أنها تقصد المعايرة بما حققه الكل فى المأمورية من مكاســـب حرام بشـــهادتها، تسأله بخبث كيف أنه لم يلتفت يوما ليدبر للعيال أحوالهم مثلما فعل فلان أو علان ممن كانوا زملاءه أو حتى يعملون تحت رئاســـته. وعن هـــؤلاء الذين كانوا أقل منه خبرة وأقـــل معرفة وإن كانوا أكثر جرأة، كان يعرف بل يثق أنها ليست فاسدة المقاصد لكنه كان يتهمها بالميل إلى الفســـاد. فساد العقل وفســـاد الضمير والذمة أيضا. لعله كان يلجأ إلى هـــذه التهم لكى يحد من اندفاعاتها فى لومه وتنغيص حياته بتلك المقارنات وهى تعرف وتثق أنه لن يتبدل أبدا. بل إنها كانت تبدو له فى بعض الحالات راضية بالفعل عن ســـلوكه إلى حد الانبهار. ورغم

الصخــب فى لحظات الخلاف كان يراها علــى حقيقتها وقد طوعت نفســها أن تقنع بأقل القليل. صحيح أن أمواج الأسعار العاتية كانت تلطمها بقســوة وتفقدها فــى بعض الحالات القدرة على تســيير دفة الحياة ومطالب البيت. لكنها كانت تنجح أحيانا فى أن يتحول الأمر إلى مجرد نكتة وتسأله المساعدة بالرأى لتدبير ما عجزت عن تدبيره. يشــير عليها بفكرة إذا كان يســتطيع أو يعاود تذكيرها بأنها الوحيدة المسئولة إذا عجز عن وجود الحل اللائق ومن ناحيتها كانت تتحامل على نفســها وتسكت لأنها تعرف أنه يناولها كل ما يحصل عليه من المصلحة. المرتب والحوافز والمكافآت دون أن يخفى عنها أى شــىء. وفــى مثل هذه الحــالات التى كان يعجز فيها عــن تقديم ما هو فوق قدرته كان يغضب من هؤلاء الذين دبروا أحوالهم بالحيل الخسيســة والألاعيب. يغضب من مصلحة الضرائب ومن الوزارة والحكومة كلها ومن نفسه فى ذات الوقت.

***

كانت مجموعة الشرائط قد نجحت فى أن تعيده إلى الزمن الآخر. يتســمع بنشــوة إلى الأغنيات التى أحبها وتفجرت معها مشــاعره الشابة. رجفة الحب الأولى وأحلام الصبا. الأمنيات وأحاسيس الزهو باكتشاف معنى الوطن. سهر الليالى أيام الدراسة الجامعية والتحليق فى الآفاق الرحبة للطلوع فى ســكة التفوق. خطب الزعيم الذى يعد ويبشــر بمستقبل أفضل والأب الذى زرع فيه بذور الصدق والجسارة وحدد له الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام. العيب والمســموح.

الخير والشـر. وأشـياء أخرى كثيرة كان قد آمن بها وحرص على تحقيقها، كان يفيق لنفسه ليجد روحه فى الزمن الجديد وقد حصل على إجازة المعاش التى لا يحدها حد ولا رجوع بعدها إلى المشـاركة أو الفعل الحقيقى، كان يشـعر أنه قد دخل الشـرنقة داخل نفسه وأنه صار فى واقع الأمر معزولا وزائدا عن الحاجة. صحيح أنه فى بؤرة البيت قاعد وساكن مثل مكتبه العتيق الذى يشغل نصف حجرة دون وجه حق أو بوجه حق مشكوك فى أمره بالطول والعرض، كأنه شبح معزول يتنفس بينهم، علاقته بهم طقوس باردة بلا عمق، ربما لأنه بحسـاباتهم تسبب فى معيشـتهم على هذا النحو المحدود إلى حد الضيق والعسـر، وكم فكر أن يجرب فكرة الموت بالإرادة، هى فكـرة كان قد قرأها فى كتـاب لا يذكره، لكنه عرف أنه من الممكن أن يموت الإنسان إذا أراد بصدق إن اقتنع تماما أن وجوده بلا قيمة أو دور أو معنى، جرب مرة ومرتين وعشـر مرات وعشرات المرات، يرقد مستسلما للموت ويتمناه، لكنه برغم كل المحاولات لم يستطع حتى أن يموت، كان يجد نفسـه فى الصبـاح ما يزال حيا يتقلب فى فراشه فى نفس ميعاده المألوف وقت طلوع الفجر، يشغل جهازه ويسـمع أغنية قديمة أو يعاود سماع الشـريط الخاص بوصايا الأب القديم ويسترسـل فى الحياة يوما آخر، وبقـوة الدفع الذاتى يقاوم أحيانا إرادته فى الموت والانسحاب، وعندما كانت هى تقتحم عليه وحدته لتستفسر منه عن أسباب اختياره للعزلة عنهم يلسعها بلسانه عدة لسعات فتفر منه وتلجأ إلى العيال .

قــام من مرقده كمن لســعته حية ، كان الليل قــد انتصف قبل ذلك بســاعة أو ساعتين ، حط شريط الوصايا فى الجهاز وشغله ، كان قد فكر أن صوت الصخب والضجيج وصراخ الأطفال لايليق بشريط وصايا ، وكان عليه أن يخلص الشــريط من تلك البداية التى لا تناسبه ، قرر أن يشغل تلك المســاحة بوصاياه لها وللعيال مخافة أن يموت قبل أن يســجلها ، بدأ يتكلم متألقا مع نفســه ومزهوا بقدرته على صياغة العبارات ، وعلى غــير عادته شــعر بالصحو والحياة وهى تنبض فــى كل أطرافه وتجعله يشــعر بالوهج والفرح بذاته ، ثم أفاق على تكة النهاية ، ســاعتها أدرك أنه ســجل بصوته كل مساحة الشــريط القديم ، مسحها وأزالها بدلا من أن يكتفى بمسح مساحة الصخب والضجيج ليحتفظ بوصايا الأب ، لعله شعر بقليل من الندم وببعض الارتياح المباغت ، لعله ارتياح الجانى بعد أن ارتكب جنايته دون قصد أو تدبير أو حتى بقصد وتدبير.

* * *

مهرجة المواطن جَعجَع العاشر

لو كان مشــروبا باردا أو ســاخنا أو عبوة تنباك «معسل» فوق حجر شيشــة مخصص للتدخين على النمط العربى أو التركى لهان عليهم الأمر وفهموا ســر تكرار النطق بالاســم المختصر على ألسنة معظم سقاة مقاهى تلــك المدينة العجيبة، بينما يتقافزون ويبتســمون لإضحاك زبائنهم على اللغز نصف المكشــوف، أو النكتة المتكررة التى تهدف لكسر حالة جمود كامن وســاكن فى قلوب الزبائن للتسرية عنهم عندما ينادى الواحد منهم زميله المكلف بتجهيز الطلبات داخل المقهى قائلا :

- «واحد جعجع وصلّحه» مع «شاى وقهوة سادة وشيشـة».
- «كركديه وينسون وحلبة» مع «واحد جعجع وصلّحه».
- «خمسة بارد وواحد زنجبيل» مع « واحد جعجع وصلّحه».

***

قــال واحد من ســكان تلك المدينــة والعهدة على الــراوى دائما أن جعجــع هو اختصار لاســم رجل عاش فى هامش الهامش قبيل شــيوع اسمه المختصر ليصبح منطوقا على كل لسان، وأنه لولا أنه امتطى مقعده الدوار بمكتبه البراح ليكون مسئولا عن مؤسسة «التوعية والبهجة» المنوط بهــا تنوير وتوعية المواطنــين بحقيقة ما يدور حولهم وزراعة الفرحة فى قلوبهم إذا أمكن. ما شــاع اسمه على هذا النحو أبدا، وربما لأنه صرح قبل تعيينه أنه لن يقبل الإشــراف على المؤســســة مالم تتوفر لها ميزانية

مفتوحة تتيح لها أن تقوم بدورها على أكمل وجه. ولأنه نال مطلبه فقد استبشر الناس منه خيرا وتحدثوا عن أصله المتواضع ووفائه لمن ينتمى إليهم من فقراء المدينة. ولعلهم صبروا وتصابروا كثيرا عليه وواصلوا الحلم فى وفائه بما وعد بتطوير مؤسسة «التوعية والبهجة» لتكون أكثر فاعلية وإيجابية لمدينة لها تاريخ لا يمكن تجاهله أو إنكاره. لكنه لم يزود الوعى كما توقعوا منه ولا زرع فى القلوب فرحة أو حلما يليق باسم أستاذ ودكتور فى تخصصه لم يف بوعد من وعوده المتكررة والمعلنة بشكل مسموع ومرئى رغم إمكانيات المؤسسة المفتوحة. بل ظل يواصل «جعجعته بلا طحن» من خلال صحف صفراء أو حمراء أو خضراء وللعام الخامس على التوالى بلا إنجاز ملموس أو محسوس غير تلك التصريحات التى كان يبوح بها بأن مشواره طويل وأن التعجل بلا دراسات علمية سوف يؤدى إلى كوارث لا يقبل أن تحدث فى زمنه. وكان البعض يصدقه ويحلم. لكن السنوات كانت تتابع وتتوالى حتى فاجأ أهل المدينة باحتفالية مرور عشر سنوات على خطة التطوير المعلنة لمؤسسة «التوعية والبهجة» ولعل المبالغة فى الإعلان وتعليق اللافتات المصروف عليها بسخاء فى كل ميادين وشوارع وحارات المدينة وبشكل غير مسبوق. فقد كان من الطبيعى أن يسخر منه خصومه ممن كانوا يتمنون لو أنفق أموال الإعلانات فى ميادين وشوارع وحارات المدينة. ووعوده الوردية لنشر البهجة والتوعية فى كل أركان تلك المدينة. كانوا فى قعداتهم ينتقدونه ويتندرون عليه لأنه يواصل استدعاء الوفود من كافة أنحاء الكرة الأرضية بدعوى أنهم يشاركون بخبراتهم فى التخطيط لمؤسسته. وكان الإنفاق

علـــى هؤلاء الوافدين أو التابعين من العاملين فى المؤسســـة شـــبه المغلقة التى لا يدعى لها من ينشـــغلون بقضايا تلك المدينة ومن بينها مســـائل التوعيـــة والبهجـــة بينما وفود الغرباء يقيمون فـــى أفخر فنادق المدينة، ولابد أن الأســـتاذ الدكتور كان يؤشـــر أن البند يســـمح بتكاليف سفرهم ذهابـــا وعودة بالإضافة لمكافآت ســـخية بعملات صعبـــة مقابل أبحاث أو مســـودات مخطوطة، وحســـب شهادات من يســـعدهم الحظ لحضور اللقاءات ويسمعون بآذانهم تلك الأبحاث كانوا يؤكدون لكل من يسمعهم أنها لا تلفت الانتباه أو تفيدهم بأى جديد، كان من ينشغلون بالمستقبل أو يحلمون بتزويد التوعية بما صار إليه الحال يفشـــلون. وبرغم الفشـــل الذى يسبقه أو يتلوه فشل كان الدكتور جعجع يصدر أوامره لمن يعملون تحت إمرته لإعداد احتفالية أو مهرجان آخر، فربما يكون أكثر جاذبية من ســـابقه، يســـعى من أمرهم ممن يعملون تحت إمرته بمهمة الإعداد لمهرجان جديد، يقترحون شـــكل وتفاصيل وتكاليف وبنود الصرف على «المهرجة الجديدة» ويقدمون إليه مســـتندات رسمية للتصديق عليها، ثم يتبادلون التهانى لو أن مســـعاهم أرضاه لأنهم ســـيحصلون وسط «الزفة» على مكافآت وبدلات حضور جلسات وسهر وانتقالات حتى ولو لم يكن هناك ســـهر أو حضور أو انتقالات لأى الاتجاهات، يصدق هو بخط يده الكريمة على العنوان الذى يراه ملفتا للانتباه أو يتصوره أكثر جاذبية قبل أن تتوزع أخباره لنشرها على أوسع نطاق فى صحف ومجلات ووكالات أنباء ولا ينســـى الصحف الصفراء التى تطلق الشـــائعات ضد أى نشـــاط ناجح أو فاشل ما لم يخضع من يشرف عليه لأساليبها فى الابتزاز بدفع

تكاليف التغطية الصحفية على شكل تحقيقات مزينة بعدة صور للمسئول بشرط أن تكون مدفوعة الأجر. لكن علاقاته العامة لم تكن بخيلة فى أى الحالات لأنها تدفع من بنود صرف مدعومة ومفتوحة بأمره قبل بداية « المهرجة» الجديدة. ولا يدرى أحد كيف اتسعت دائرة من ينتقدونه فى السنوات الأخيرة إلى حد أن بعض المقاهى فى وسط المدينة صارت تلملم أشتاتا من الشباب والرجال العاطلين أو أشباه العاطلين وتشجعهم وتدفعهم دفعا فى جلساتهم المفتوحة أو المغلقة للسخرية من الدكتور «جعجع» بمثل هذه العبارات المنطوقة على ألسنة السقاة وغالبيتهم من حملة المؤهلات العليا وفى تخصصات متنوعة وإن كانوا أسعد حظا من روادها أشباه العاطلين الذين يتضاحكون بلا جدوى على أنشطة مسئول مجلس شبه موقر عاجز بشكل بيّن عن تأدية دوره على النحو اللائق رغم استهجان شباب المدينة من أشباه العاطلين المفلسين أو المستورين.

* * *

فى رواية أخرى من بطن مقهى مشهور كائن وسط المدينة أن أصل التسمية كان كشفا أسندوه لواحد من الظرفاء من رواده يقال إنه جاء ذات مساء وجلس على مقعد دون أن يثبت فى مكانه كما هى عادته بين زملائه إذا كان مشحونا بنكتة جديدة أو يتحفز لإلقائها عليهم لينال استحسانهم، تركزت عليه نظراتهم وتهيئوا لاستقبال آخر نكتة فتحفز وابتسم على غير عادته قبل أن يقول بكل وقار :

– أصل «المهرجة» فعل معرف بألف ولام تحول لاسم مشتق من «مهرجان» لكن «مَهرَج» بفتح الميم والراء فعل ماض يضاف إلى المهرج

فيقال «مَهرَج المهرّج» أما «الجعجعة» التى هى اسم معرف أيضا من فعل «جَعجَع»، والتى تضاف إليها ألف بعد الجيم الثانية فتصبح «جعجاعا» ويمكن أن تتحول إلى جملة فعلية هى «جَعجَع الجعجاع» «إذ يقولون أن كل من طنطن ولم يعمل شيئا إيجابيا» يستحق تشبيهه بمطحنة حبوب بدائية من حجر جيرى تتسمى باسم «الرحى أو الرحاة» وعندما تدور وتكركر، بلا فائدة يقال فى وصفها «جعجعة بلا طحن».

كان من الواضح أن زملاءه تصابروا عليه رغم أنهم تاهوا ولم يصل أحدهم إلى الغرض من تلك الشروح الطويلة لأصول الكلمات والأفعال التى تناسب تلامذة مدرسة إعدادية ومن المستحيل أن تكون نكتة أو شبه نكتة عكس ما اعتادوه منه لأنه بارع فى توليد وإلقاء النكات المختصرة التى تجعلهم يشعرون بالنشوة ويضحكون من شغاف قلوبهم المهمومة، ولأنه بعد أن قال هذه المقدمة المطوطة استشعر الحرج فتبادلوا النظرات قبل التواطؤ بشكل جماعى فى وقت واحد تقريبا لمجاملته بضحكات خافتة متقطعة، لابد أنه لملم نفسه بسرعة وقرر التكفير عن غلطة شعر أنه ارتكبها من غير قصد قائلا إنه لم يحسن عرض ما عنّ له من فكرة رغب فى توصيلها إليهم فلم تصل. واصل بعد أن خفتت الضحكات الخافتة قوله أنه يتكلم بجد لأنه تذكر اسم الأستاذ د. «جعجع» فى الليلة الماضية بينما كان يكابد أرقا مباغتا جعله يفكر بينه وبين نفسه فى حل لغز كلمة «جعجع» الذى صار شائعا بينهم يرددونه ويعرفون نصف معناه فاكتشف أنه إذا كانت «جَع» الأولى هى اختصار للاسم الذى تطالعهم به الصحف والمجلات

بشكل متواتر وهو أ.د: جعفر عبدرب النبى فما هو أصل الثانية؟ لاذوا بصمت حائر وهزوا رؤوسهم ساكتين ومستسلمين ليتيحوا له فرصة فك اللغــز. تنحنح قبل أن يعتدل فــى قعدته بجدية ليعلن لهم أن «جع» الثانيـــة اختصار لعبارة «جامعة عين شمس أو جامعة عصرية أو عربية أو عالميـــة» أو شـــىء من هــذا القبيل. أنهى توضيحـــه ثم لاذ بصمت المكتشف المتواضع فانطلقوا فى الضحك من شغاف قلوبهم كما اعتادوا علـــى عكس المرة الأولى فلم يتمالك هو الآخر نفســـه من الضحك ليزيح الهمّ عن قلبه المحزون بسبب غربته وبطالته التى طالت وأجبرته على اســتهلاك وقت فراغه المطوط فى المقاهى ليتخفف من همومه. وبعد أن شبعوا من الضحك اقترح أكثرهم خبثا أن يكون الاكتشاف العبقرى خاصــا بمجموعتهــم وحدهــا دون بقية خلق الله فــى المدينة. وأنهم ســوف يكتفون بذكر أو سماع الاسم الشـــائع ويفطسون على أرواحهم مـــن الضحك. علـــى العكس ممن يســمعون أو يرددون الاســم وعلى وجوههم علامات كدر بســـبب السخف المتواصل الذى كانت تمارسه مؤسسة امتلكها أ.د. جعفر عبدرب النبى وكأنها ميراثه الشخصى دون مســتندات رسمية. حالة اغتصاب باستخفاف أو خفة يد أو ثقل ظل كابس يشـــبه الاستعمار الجديد كما قال صاحبهم فتعاهدوا على كتمان اللغــز. لكنهم فى اليوم التالى سمعوا أصواتا فــى نفس المقهى تتبادل فك طلاسم الاسم لبعضها البعض بصوت عال ثم يضحكون على عكس ما كان أمره فى الســـابق يدعو إلى الكدر والغم. ولعل السقاة كانوا أكثر حساسية فتفننوا فى صياغة اسمه مختصرا. يقولونه مسبوقا أو متبوعا

بطلبات الرواد. كأنها براءة اختراع شاعت وانتشرت بشكل مجانى. أو كشف قصير الأجل بالنسبة لمن كابد أرقا فى ليلة سابقة ليفك لغزا عصيا باح به لأصحاب يثق فى حسـن نواياهم لكنهم أفشوه. وبمرور الأيام تأكد لديه بمثل ما تأكد لكل مجموعته أن اللغز أصبح شائعا فى طول المدينة وعرضها. كان الناس يذكرون الاسـم عرضا فى المركبات العامة ويضحكون بنشوة وكأنها أحدث نكتة تقال لعشرات المرات ولا يقول أى واحد يسـمعها إنها قديمة. ولعل الشـاب العاطل رغم أنفه والذى تصور أنه اكتشف لهم شفرة اسم «جعجع» ارتاح بعد أن دخلت دماغه فكرة خاطفة صدقها وأراحته من سـوء الظن الذى لازمه شـهرا على الأقل بأنه احتمال قائم أن يكون هناك من أطلق على الرجل اسمه المختصر قبله، لكنه تاه من ذاكرة الناس رغم الشيوع المتسارع شأن كل النكات التى يصعب التعرف على من أطلقها لأول مرة. ويوما فى إثر يوم كانت المجموعة تتأكد أنه لا توجد أسـرار فى هذه البلدان يمكن كتمانها حتى ولو كانت فى منتهى الخطورة. بمثل ما جرى فى أواخر ستينيات القرن الفائت عندما كان راكب الحافلة يطلب من السائق أن ينزله قبل أو بعد أو عند محطة المطار السرى.

٭٭٭

فى واحدة من أمسيات الصيف استأذن رجل من كبار السن مجموعة شـباب من رواد المقهى ليشـاركهم واحدة من جلساتهم على نحو أوحى لهم بأنها زيارة مدبرة ومقصودة ولا فرار منها. ورغم أنهم توجسـوا منه خيفـة. إلا أنه فاتحهم وهو يتأمـل وجوههم المرتبكة كيف أن كثيرا من

مهرجانـــات تلك المدينة تقام لإلهـــاء الناس بلا جدوى «عبث فى عبث» فخافوا أن يبعبع أحدهم بوجهة نظره بلا تحفظات وطالبوه بفك طلاســم الاسم المختزل الشائع وأسباب أن كلمة «جعجع» صارت تثير الرغبة فى الضحك عند كل ناس المدينة بعد أن كانت تصيبهم بالقهر أو بالســكتة؟ فأجابهــم على الفــور ضاحكا بصوت عال وهو يضــرب كفا بكف وكأنه لم يضحك فى حياته قبل ذلك:

– إن الموضــوع يخص الأســتاذ د. جعفر عبدرب النبى دون ســواه. واسألونى عنه أكشف لكم خباياه.

ولأنـــه كان يضحك فقد شــاركوه الضحك مبتهجــين، وبعد أن كفوا وساد فاصل من الصمت راح يتأملهم بعينيه الصاحيتين ويفرز تقاطيعهم واحدا فى إثر واحد فتلملموا على ذواتهم وتوجســوا خيفة، لكن الرجل طمأنهم وأكد لهم أنهم فى أعمار أولاده وأنه ما جاء ليتجسس أو يتبصص عليهم أو يفكر فى إلحاق الضرر بأى واحد منهم، بدا لهم صادقا وحنونا فهــزوا رؤوســهم بالتتابع علامة الاطمئنان إليـــه إلى حد أنهم رفضوا أن ينظر أى واحد منهــم لبطاقة الهوية التى أخرجها من حافظته وفتحها ليريها لهم قائلا:

– أنا مدرس لغة عربية فى مدينة مجاورة فتأكدوا بأنفسكم.

لابــد أن ثقة متبادلة نشــأت بين العجوز ومجموعة الشــباب جعلته يعتدل فى جلســته ويتقبل عرض أحدهم ليتناول مشــروبا على حسابهم فلم يتردد ونظر للساقى الواقف أمامه ثم قال بخفة:

– لا مانع ... قهوة مضبوط وواحد «جعجع» وصلحه.

وبنفس الإيقاع كرر الساقى عبارة الرجل بينما يتحرك فى نفس المربع. فتضاحكوا بصخب كان يتناقص على مهل حتى جاء الساقى بالمطلوب. فتجدد الضحك بينما يتابعون الرجل وهو يرتشف محتويات الفنجان بتلذذ ويزيحه بعيدا ثم يحدثهم :

– فى السابق كانت المهرجانات تقام بواسطة مؤسسات متخصصة إذا كان هناك ما يتطلب التجهيز لها أو الصرف عليها لإسعاد الناس. تقام فى مناسبة قومية أو وطنية أو فكرية للترفيه عن خلق الله والتخفيف عنهم ما دامت مطلوبة ومشروعة. لكن موضوع مؤسسة التوعية والبهجة يختلف ولا يحتمل خلط الأوراق على هذا النحو المستفز لكل من له عقل يفكر. فالوعى مطلوب أولا وقبل أى شىء ويمكن مثلا تغليف الوعى بأغلفة تبعث البهجة فيتم المراد من رب العباد وتصل رسالة التوعية بما يدور حولنا بوعى وخفة خلافا لما يجرى من «مهرجة» تليق بالحواة أو عتاة المهرجين وبهلوانات الموالد الذين شفناهم وشاف هو بعضهم فى صباه بساحات موالد السيد البدوى أو إبراهيم الدسوقى أو السيدة زينب وصولا للحسين بن على رضى الله عنهم.

كان الرجل قد فرض وجوده فاستجابوا والتفوا حوله ليستمتعوا بحيويته وخفة ظله التى لم يتوقعوها من رجل فى مثل عمره. كان من الواضح أنه يتمتع بخبرات جمة حولته إلى بؤرة تتطلع إليها عيونهم بانبهار فباح لهم بما يمكن أن يعتبروه سرا عندما أكد دون أن يطرف له رمش أنه أول من أطلق على «جَعجَع» اسمه المختصر لكن بشكل مغاير عن زميلهم المجتهد الذى يتمتع دون أدنى شك بخيال خصب حسبما أكد لهم. تبادلوا النظرات فأضاف ليزود دهشتهم :

– اسمحوا لى أن أطالبكم بتأمل ملامحى بدقة. أنا أعرف أنها تبدلت كثيرا، لكن ما حيلتى ؟ الزمن يحفر فوق ملامح البشر خطوطا لا تخطر على بالهم.

تبادلوا النظرات الحائرة وتردد فى معاودة طلبه فتطوع مندفعا ليبوح لهم على مهل وبشىء من الخجل:

– سأريحكم وأكشف لكم هويتى. لقد كنت أنا المسئول عن مؤسسة «التوعية والبهجة» قبل جعفر عبد رب النبى، وكنت أنا الذى اختاره ليكون مساعدا لى، مخدوعا فى تفوقه خلال سنوات الدراسة. وسوف تستغربون لأنه كان من نفس القرية التى ولدت فيها، وربما كانت بينى وبينه قرابة من بعيد بحسب ما أكد لى.

تبادلوا النظرات بارتياب وربما بخجل أو خشية من عتاب قد ينالهم منه، لكنه هز رأسه وأشار لعامل المقهى ووجه إليه أمره بكل حنو ليعاود تقديم المشروبات على الجميع قبل أن يواصل. فتحول إلى متآمر ضده على غير توقعاته مستعينا بأعوان يتميزون بالطاعة العمياء من صغار العاملين بالمؤسسة مقابل بدلات حضور لجلسات وهمية وبدلات عن منجزات لم يقم بها أحد. والغريب أن جعجع استغل ثقة الرجل فيه لأبعد حد. فكان يطلب منه التوقيع على كشوف الصرف موضحا له بأدب جم أن مكافآت من يعملون فى مؤسسة «التوعية والبهجة» سيزود أهميتها ويضيف لرصيدها حماس من يعملون بها، كانت المسألة بحساباته خلافا لايفسد للود قضية، لكن ما كان يجرى فى الخفاء وما أشاعه أعوان جعجع ضده تنفيذا لتعليماته التحتية وضعه فى خانة من يحسنون النية بشكل مبالغ فيه. ووصل الأمر إلى حد اتهامه بالتربح

وإقالته قبل تعيين الدكتور جعجع مكانه، وعلى نحو مباغت وجد نفسه منتدبا على غير إرادته ليعمل مدرسا للغة العربية بمدرسة إعدادية فى مدينة نائية، وكيف أنهم تهددوه وتوعدوه بمصير أصعب لو تشكى أو بعبع بما يسىء لرئيس مؤسسة التوعية والبهجة فيزود غضبه، قال الرجل لهم إنه قال لنفسه أيامها إن الجنازة حارة والميت كلب. طوع نفسه وارتضى التباعد عنه وعن أعوانه ليعيش فى مدينة نائية حريصا على أعصابه وعمره ليتمكن من تربية عياله بعيدا عن المهاترات الإدارية. ولأنه أدى رسالته نحو أسرته وتلاميذه قبل أن يحال إلى المعاش منذ شهور، ولأنه تخلص من أى تبعية وتحرر تماما أو صار جاهزا فى أواخر أيامه لمواجهة الفساد فى عقر داره فقد عاد لمدينتهم ليكشف لرواد المؤسسة كيف أنها انحرفت عن تأدية دورها للتوعية والبهجة واتجهت إلى المهرجانات والاحتفاليات التى تقام بمناسبة أو بغير مناسبة مهما تكلفت من الميزانيات ومهما تأكد أنها بلا أدنى مردود علمانى أو نفسانى محسوس لقلة روادها بشكل فاضح، ولأنها لا ترقى لمستوى اللهو المشروع أو غير المشروع فى موالد أولياء الله الصالحين حيث يتجمع الناس حول الحواة والمهرجين فى ساحات مفتوحة يشغلها سيرك قومى أو أهلى وألعاب أراجوزات وثلاث ورقات للضحك على ذقون روادها بلا رقيب أو حسيب على العكس مما يلزم أن تقوم به مؤسسة وظيفتها التوعية والبهجة. وعندما سأله واحد منهم عن بدايات الأستاذ د. جعجع هز دماغه متفكرا وقال:

– كان مجرد تلميذ شاطر لكنه كان فى نفس الوقت نهازا للفرص وعاجزا عن الوصول لمشاعر الناس الذين انفصل عنهم بعد حصوله على

الدرجة العلمية وتعيينه معيدا فى جامعة عين شمس أولا ثم انتدب للعمل فى الجامعة العربية وسافر لجامعة عمان ثم انتهى مشواره فى واحدة من الجامعات الأمريكية لتدريس أصول اللغة العربية لمشاريع مستشرقين جدد منشغلين بدراسة مجتمعاتنا على كل المستويات، ولأسباب خفية اختاروه ليترأس مؤسسة التوعية والبهجة، ولعل الكثرة ممن كانوا فى المؤسسة وأنا واحد منهم تأكدوا أنه لن يتمكن أن يكون امتدادا على مستوى يساوى أو يقارب مستويات من سبقوه بالجلوس فى نفس مكانه على مختلف توجهاتهم بين يمين ويسار ووسط فى أسوأ حالاتهم. لكنه سكن المكان واستتب وأبعد كل من اعترض أو قال حتى لروحه إنه لم يحدث أن واحدا ممن سبقوه تربح على المكشوف بمثل ما فعل هو ليسىء لتاريخ مؤسسة راسخة للتوعية والبهجة الوقورة بأساليبه «البراجماتية الفكرية المعاصرة» بتبجح وقدرة على التباهى وهو طالع من تحت السلم كما يشهد كل من عايشوه فى طفولته التعسة لكنه تألق وصار يقول بتبجح أنه عبر الخطوط الفاصلة بين ماضيه وحاضره وانفلت ولن يعود للفقر أو الفقراء أبدا.

كانوا يتبادلون النظرات ويتعاطفون مع الرجل الذى يحكى لهم تجربته وعيناه تجاهدان لمنع دموعه من أن تتساقط فتتساقط ويدعى بينما يجففها بمنديله من تحت منظاره أنه دخان الشيشة أو السجائر يغزو عينيه الموجوعتين بحساسية ضد كل أنواع الدخان. يشعرون بالتعاطف معه ويطالبونه بنسيان الموضوع وقد تحول اسم جعجع فى ذلك المساء إلى رمز لزيادة الهم المعاش.

كتبت صحيفة مسائية قليلة التوزيع أن أ.د. جعفر عبد رب النبى طالب جميع من حضروا آخر مهرجاناته بأن ينهلوا من علوم الدول المتقدمة وثقافات العالم وتفتيح عقولهم والانفتاح على الدنيا بأسرها قبل أن يفوتهم قطار التقدم. لكن رجلا عجوزا فى سن المعاش قاطعه قائلا إن أبواب بلادنا مفتوحة بشهادة التاريخ المكتوب والمروى من أيام الفراعين والبابلين والآشوريين وأهل الشام وفلسطين والسودان القدامى ومن عاصروهم من جيران الواحات والصحارى المسكونة. وأن حكاية العالم الذى تحول إلى قرية واحدة مشكوك فيها. ثم أضاف بأن الدنيا محكومة بالأقوياء ما تزال وأن الارتماء فى أحضانهم ليس مشاركة بل تبعية مكشوفة. وذكر محرر التحقيق كيف حاول أنصار أ.د. جعفر عبدرب النبى إسكات الرجل بالإشارة لكنه واصل كلامه واتهم مسئول البهجة والتوعية بأنه مجرد تابع أمين أو غير أمين. كان لمكبر الصوت فى ركن القاعة مفاتيح فصلها أعوان المتهم بالتبعية فتاه صوت الرجل وأمسك جعجع بيمينه سماعة أخرى جالسا فوق المنصة الكائنة فوق مستوى الرواد القلائل وغالبيتهم من أعوانه. تنحنح فخرجت نحنحاته صافية من مكبر الصوت القادر على امتصاص صوت الرجل العجوز لتجبره على السكوت. وبعد النفخ والزفير طالب مالك المكان من الموجودين فيه الصمت وحسن الاستماع. كان العجوز يشيح بيديه وكل بدنه ويهذى بصوت عاجز عن الوصول لأسماع الحاضرين غضبانا ومحتجا على نحو غير مفهوم بينما يجلجل صوت أ.د: جعفر عبد رب النبى ببراعة خبير ليحول المعترض حسبما قال إلى مندفع كاره للسلام الدولى. وبكل أدب ونعومة وبرود أعصاب يشرح للحاضرين ما يدعم وجهة نظره:

– الرجـــل كما هو بـــاد لكم عجوز متهالك فى ســـن المعاش وقد كان لســـوء الحظ ممن يعملون فى نفس مؤسستى. لكنه خان الأمانة واختلس مـــن عهدته وعهدة زملائه فتولت إدارة الشـــئون القانونية التحقيق معه، ولولا تعاطفى بشكل إنسانى لرفعت أمره للنيابة الإدارية والجهاز المركزى ومباحث الأموال العامة أو المخابرات العامة ومباحث أمن الدولة والمدعى الاشـــتراكى مثلا وغيرها وغيرها من أجهزة المحاسبة وتوقيع الجزاءات لكنه تباكـــى وقبل أيادينا فعفونا عنه ونقلناه ليعمل مدرســـا بعيدا عنا. لكنه عاد بعد خروجه للمعاش ليكذب ويكذب ويكذب فلا تصدقوه.

هتف العاملون فى المؤسسة مع ضيوفها الوافدين بحياة أ.د. «جعجع» وشـــكروه على إنســـانيته الفياضة وتعاطفه مع كبار السن فى زمن تتردى فيه الأخلاق. كان فى القاعة واحد من الشـــباب الذين التقى بهم الرجل فى المقهى فى تلك الليلة العجيبة وكان يهز دماغه ويفكر أنه لا بديل من اللجوء لمنظمات حقوق الإنسان ووكالات الأنباء العالمية. وفى الأيام التالية نشـــرت عدة تحقيقات صحفية عن عجوز اختفى تماما وكأنه كان خيالا أو وهما تجســـد ثم تبخر بعد مواجهة عابرة مع مســـئول مؤسسة التوعية والبهجة. لكن أ.د. جعجع وجدها فرصة ليرد فى عدة حوارات صحفية بأنه لا يعرف عن أى عجوز يتحدثون ولا هو مســـئول عن مصائر البشـــر من رواد مؤسسته وهم آلاف مؤلفة. وعلى شاشات التلفاز كان يطل باسما أو ساخرا. متمكنا ومتماديا فى الهجوم على من يتجاسر ويفكر فى توجيه أى اتهامـــات وضيعة مخفية بين ســـطور تحقيقات صحافة صفراء بارعة فى الابتزاز. وبدا لناس المدينة أن المســـألة من أولها لآخرها لعبة خالت

عليهم أو سـيناريو محبوك يهدف إلى تزويد مساحة الكتابة فى الصحف عن مؤسسته إلى جانب أنه يطل عليهم كل يوم من شاشات التلفاز بطلعته البهية ليؤكد للناس فى كل مرة أنه مشغول مشغول مشغول وأن مؤسسته تخسـر وجوده فيها لترتيب احتفاليات أو مؤتمرات جديدة بدلا من الرد علـى مثل هـذه الحماقات من حزب أعداء النجـاح الكارهين والمتآمرين مؤكدا أن لديه مفاجأة كبرى سـوف تخرس كل الألسنة وسوف يظهرها فى الوقت الذى يراه مناسـبا. لكن شـيئا من هذا لم يحدث أبدا إلى حد أن الناس تشككت أن وراء هذا السيناريو المطوط كذبة كبيرة أو مجموعة أكاذيب. لعل البعض قال للبعض إن الرجل لم يكتف بمؤسسته الفاشلة وتسـلط من خلال الصحف والتلفاز على عقولهـم ووعيهم وذاكرتهم فى نفـس الوقت فقرر البعض مقاطعـة الصحف والمجلات واتفقوا على عدم فتح أجهزة التلفاز فى أوقات البرامج التى تستضيفه ليقول نفس العبارات بنفـس الإيقاعات بلا كلل أو ملل. ولعل الرجل العجوز الذى اختفى فى ظـروف غامضة تاه من ذاكرة الناس وما عاد هنـاك من آثاره غير دعابة متكررة ينطقها سـقاة المقاهى فى محاولة لإضحـاك الناس عندما ينادى الواحد منهم زميله قائلا :

- واحد شاى مع « واحد جعجع وصلحه».

***

المؤلف فى سطور

ليســانس آداب قسم تاريخ ١٩٦٧آداب عين شمس – دبلوم تمهيدى ماجســتيير ١٩٦٨– جائزة الدولة التشجيعية ووســام الدولة للفنون من الطبقة الأولى عن مجموعة «النبش فى الدماغ ١٩٨٥

عضو اتحاد الكتاب نادى القصة/أتيليه القاهرة /جمعية الأدباء/ نقابة السينمائيين جمعية مؤلفى الدراما.

سافر ضمن وفود الأدباء لتمثيل مصر فى :

الصين / السعودية / العراق / ليبيا / اليمن.

صدر للكاتب :

– دائرة الانحناء «مجموعة قصصية» ١٩٧٠ هيئة الكتاب.
– الناس فى كفر عسكر «رواية» ١٩٧٩هيئة الكتاب.
– النبش فى الدماغ «مجموعة قصصية» ١٩٨١دار المعارف.
– مدينة الباب «مجموعة قصصية» ١٩٨٣هيئة الكتاب.
– كشف المستور «مجموعة قصصية» ١٩٨٤ دار المعارف.
– الحنان الصيفى «مجموعة قصصية» ١٩٨٧هيئة الكتاب.
– حكاية شوق «رواية» ١٩٩١دار الهلال.
– البحر الرمادى «مجموعة قصصية» ١٩٩٣هيئة الكتاب.

- حكايات المدندش «رواية» ١٩٩٦ دار الهلال.
- نصف الساعة السعيد «مجموعة قصصية» ١٩٩٦ قصور الثقافة.
- المنام المراوغ «مجموعة قصصية» ٢٠٠٠ دار زويل.
- النبش فى الدماغ «مجموعة قصصية» ٢٠٠٠ مكتبة الأسرة.
- الأعمال الكاملة «المجلد الأول» ٢٠٠٠ هيئة الكتاب.
- ملاعيب الأكابر «مجموعة قصصية» ٢٠٠١ مركز الحضارة.
- الحنان الصيفى «مجموعة قصصية» ٢٠٠١ مكتبة الأسرة.
- الأعمال الكاملة «المجلد الثانى» ٢٠٠١ هيئة الكتاب.
- إبداعات التفرغ «المجلد الأول» ٢٠٠٢ المجلس الأعلى.
- رسام الأرانب «مجموعة قصصية» ٢٠٠٢ قصور الثقافة.
- خطافة العيال «مجموعة قصصية» ٢٠٠٢ هيئة الكتاب.
- الناس فى كفر عسكر «رواية» ٢٠٠٢ مكتبة الأسرة.
- إبداعات التفرغ «المجلد الثانى» ٢٠٠٣ المجلس الأعلى.
- مواسم الشروق «قصص روائية» ٢٠٠٣ الكتاب الفضى.
- عرض مجانى للجميع «مجموعة قصصية» ٢٠٠٤ قصور الثقافة.
- أعمال أحمد الشيخ «رواية و ٤ مجموعات» ٢٠٠٦ هيئة الكتاب.
- حكايات المدندش ٢٠٠٨ هيئة الكتاب.
- أرضنا وأرض صالح «رواية» ٢٠٠٨ روايات الهلال.
- كلام مساطب «قص قصائد» ٢٠٠٩ قصور الثقافة.
- الناس فى كفر عسكر «رواية» ٢٠٠٩ ط ٥ هيئة الكتاب.
- هوامش المدينة «رواية» ٢٠١٠ هيئة الكتاب.
- سداسية كفر عسكر هوامش/ وأرضنا ١١٠ إبداعات التفرغ

وفى مجال الكتابة للطفل صدرت له :

- عسكرى الشطرنج الأبيض ١٩٩٠ هيئة الكتاب.
- نخلة حازم ١٩٩٢ دار المعارف.
- نخلة حازم - ط٢ ١٩٩٦- ط٣ ١٩٩٨ دار المعارف.
- غياب الكلب الأبيض ١٩٩٣هيئة الكتاب.
- القط الكسلان - ط١ ١٩٩٤ - ط٢ ١٩٩٧ دار المعارف.
- أم الخير - ط١ ١٩٩٤ - ط٢ ١٩٩٧ دار المعارف.
- الجاحظ - ط١ ١٩٩٤ - ط٢ ١٩٩٧ دار المعارف.
- الخطوة الأولى ١٩٩٥هيئة الكتاب.
- العصفور الأخضر الترجمان ١٩٩٦هيئة قصور الثقافة.

«الأشياء فى عيون الصغار» - مركز الكتاب للنشر ٢٠٠٠

- فنجان الشاى الصينى - البيت الصغير
- القلم النشيط - عسكرى الشطرنج
- المكنسة القديمة - كتلة الخشب
- الأقلام الملونة - مجموعة الكراسى
- فارس من الأبنوس - الحطاب
- الساعة الحمقاء - نطاط الساعة المستعجل
- المقص المخدوع - دبوس إبرة
- الكرة الحمقاء - الفارس والدمية
- قالب الثلج البردان - التمرة والنواة

الفهرس

مقدمة.. ٥
١- جيوب الكفن ٧
٢- صحوة خلية حية وحيدة............................... ٢٣
٣- طلوع روح صباح العيد ٣٤
٤- غفوة غفلة وبعدها صحوة ٤٣
٥- انكسار الخواطر.. ٦١
٦- لعبة فى المنام ٧٢
٧- السعار ٨١
٨- الابتلاع ٩٢
٩- المتوحدان ١٠٠
١٠- شريط الوصايا ١٠٨
١١- مهرجة المواطن جعجع العاشر ١١٧
١٢- المؤلف فى سطور ١٣٢

رقم الإيداع	٢٠١٣ / ٣٦٣٥
الترقيم الدولى	ISBN 978-977-02-7727-0

١ / ٢٠١٢ / ٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)